حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السادس . شهر شوال . ١٤٣٧ هـ / تموز . ٢٠١٦ م

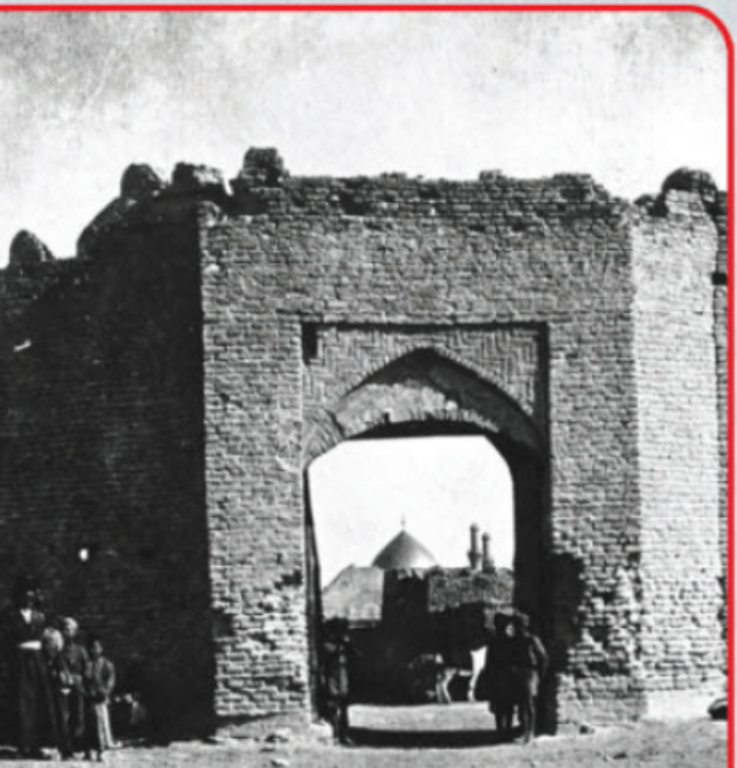

عدد ممتاز

بمناسبة ختام فعاليات عام الامام علي (عليه السلام)

٦

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

رئيس التحرير
د. كامل سلمان
الجبوري

(10)

المختار بن أبي عبيد الثقفي

العلامة الشيخ أحمد الدّجيلي

تصدير

لسماحة العلامة الجليل الشّيخ محمّد رضا المظفر معتمد جمعية منتدى النّشر.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

لا زلنا نعرف في «المختار الثّقفي» رجلاً لامعاً في تاريخ الثّورات، وشجاعاً مدلهاً في الحروب، وخطيباً مصقعاً على المنابر، وسياسياً محنكاً في قيادة النّاس واستغلال العواطف، وهو مع كلّ شخصية متأرجحة في ألوان العقيدة المذهبية يغري الباحثين بالفحص عنه وعن سره، ويدرس نفسيته وعقيدته، لاسيّما أنّه قاد أكبر ثورة ضد الدّولة الأموية باسم الأخذ بثارات «الحسين الشّهيد قتيل العبرة»، والتّاريخ لا يسعه أن ينصف مثل هذه الشّخصية، فيكشف كلّ حقيقته للناس، لأنّ أعداء آل البيت لا يروق لهم أن يخلص مثل هذا الثّائر الجبار من النّقد والتّهم بما يصح وما لا يصح، ومحبو آل البيت من جانب آخر يحرصون كلّ الحرص على أن يظهر مثل هذا الآخذ بأعظم ثار لهم بأسمى المكارم الدّينية والأخلاقية، فتبقى لأجل ذلك جوانب جد مغرية من حياة مثل هذا الرّجل تحتاج إلى التّمحيص والبحث أضف إلى ذلك أنّه على رغم كونه علوياً في تربيته ونزعته وخصماً عنيداً لبني أمية وآل الزّبير وهو الوحيد الّذي أخذ بثار الحسين فشفى صدور شيعته، إنّه على رغم كلّ ذلك، فإنّ خطوط ثورته وتاريخه في العقيدة الصّحيحة والفقه الإسلامي على طريقة آل البيت(عليهم السلام) ليست واضحة كلّ الوضوح، بل لا تزال منها جوانب غامضة تحتاج إلى التّدقيق والحل، لاسيّما أنّ التّساؤل لا يزال باقياً: مَن الموجه أو المجيز لحركته الثّائرة الّتي لا تصلح بحال في مذهب الإمامية بدون إجازة الإمام أو رضاه؟

فهل ثار بإجازة الإمام زين العابدين(عليه السلام)؟ ولماذا لم يعلن الإمام ذلك؟ أو لماذا لم يستغل الإمام انتصاره إنْ كان عن أمره فيحضر لقيادة الثّورة؟

ولكن كلّ ذلك لم يقع، ولم يدل سير الحادثة والتّاريخ أنّه ينبغي أن يقع، فهل نرجح أنّه لم يكن مجازاً من الإمام بالمعنى الصّحيح من الإجازة؟

إذن! فهل ثار بإجازة محمّد بن الحنفية، لأنّه -كما يقولون- كيسائي العقيدة؟ ولكن ابن الحنفية ليس بذلك الشّخص الّذي كان يدعي الإمامة حتّى يجيز مثل هذا العمل الهائل بدون رضا الإمام، وقد أريقت فيه آلاف الدّماء المسلمة وذهبت كثير من الأموال الطّائلة، والفرح بوقوع الانتقام من قاتلي الشّهيد أبي عبد الله شيء والرّضا والإجازة للعمل شيء آخر وإذا لم يثبت كلّ ذلك أو لم يثبت ما يبرره، فكلّ ما قام به من عمل ليس له وزن صحيح في مذهب آل البيت ليصح أن يعد المختار من الشّخصيات المقدسة في تاريخهم.

هذا موضع هو أحد الجوانب الحساسة، بل أهمها في ثورة المختار الثّقفي الّتي تحتاج إلى درس وعمق في الدّرس، لكشف ما أغلق من نفسيته وصحة عمله، والالتذاذ بما قام به من عمل لشفاء الصّدور الواغرة على قتلة شهيد الطّف يدعو -كما قلنا- إلى التّشبث بالطّريقة الصّحيحة لتبرير عمله أو إلى البحث - على الأقل- عما يكشف هذا الغموض.

مضافاً إلى أنّ معرض ثورته ووقائع حروبه هي في حد ذاتها معرض لذيذ لمحبي الانتقام من الظّالمين والمعتدين، وتأريخه تاريخ حقبة حساسة من تاريخ أهم العهود الإسلامية تليق بالدّرس والعرض والتّاليف.

على أنّ غموض الحوادث التّاريخية هو نفسه وحده يثير في نفوس الباحثين الرّغبة في التّمحيص والتّاليف بل يحمل القراء على الاستقصاء وتتبع مجريات تلكم الحوادث.

إنّ تلك الأمور بل هذا الأمر الأخير بالخصوص أحد الدّوافع -فيما أعتقد- لتأليف هذا الكتاب المفيد الّذي أقدمه بين يديك لمؤلفه قرة العين بل الجلدة ما بين العينين الأستاذ «الدّجيلي».

بل لئن دفعه حبه لثورة المختار الّذي حمله على الدّفاع عنه بكلّ ما أوتي من قوة، فإنّ الغموض في تاريخه كان هو الحافز الأوّل والمشجع لاختيار هذا الموضوع الشّيق عند الباحثين والكتاب.

وبعد هذا، فإنّ القارئ له حسابه عند المؤلفين في انتقاء موضوع أبحاثهم، والمنتظر من القراء أن تغريهم على المطالعة دراسة أمثال هذه الموضوعات فيستدرجون لاقتناء الكتاب حينما تثار فيهم الرّغبة الكامنة لمعرفة غوامض التّاريخ، وإنّي لأحمد لمؤلفنا لباقته في استغلال هذه النّاحية من كوامن نفسيات القراء لترويج ما يريد أن يدعو إليه في مؤلفه هذا.

وهذا مؤلف -على صغره- يعطيك درساً جديداً عن حياة المختار يمكنك من الاطلاع على أسرار ثورة هذا الرّجل الحديدي وحسن نواياه في جهاده وجميل بلائه في حروبه.

وإذا كان الكتاب باكورة تجربة مؤلفه في النّشر وهو في بواكير عمره المديد إن شاء الله تعالى فإنّي أتوقع له الانتشار والرّواج وإقبال القراء المتعطشين لمثل هذه البحوث النّافعة، وأسأل الله عز وجل أن يجعل منه مؤلفاً بارعاً -كما جعل منه شاعراً حساساً- ليخدم الحق للحق في مؤلفاته المقبلة الّتي ستكون إن شاء الله في الطّليعة من بين الكتب الحديثة، وأرجو لي وله التّوفيق والتّسديد إنّه ولي التّوفيق.

محمّد رضا المظفر

أسرته

ينتمي المختار في نسبه إلى قبيلة عربية أصيلة كانت «تتيه على أقرانها من القبائل العربية»[1]، هي قبيلة «ثقيف» وهو جدّهم الأعلى الّذي تفرعت منه هذه السّلالة، ويحدثنا «ياقوت الحموي» في هذا الصّدد، إنّ «ثقيفاً» اسمه «قسي بن منبه» وقد جاء بـ «قضبان» فغرسها في واد يقال له «وج» -وقد عرف بعد ذلك بالطّائف[2]- فأنبتت فسمي «ثقيفاً»، وقد بقي «ثقيف» في هذا الوادي حتّى كثر ولده وصاروا أسرة كبيرة فحصنوا الطّائف وبنوا عليها طوقاً وكان أن شبت الحرب بينهم وبين أخوالهم بني عامر حتّى انتصروا عليهم -وكان «ثقيف» قد تزوج بابنتي عامر الواحدة بعد الأخرى- وأخيراً امتنعوا عن أداء الحق لبني عامر فضرب المثل باستقلالهم، قال أبو طالب:

مُنعنا أرضنا من كلّ حي ... كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم ... فحالت دون ..... السّيوف

وكان جدّ المختار لأبيه «مسعود بن عمرو» له منزلته المرموقة في النّفوس وقد نزلت في حقه آية من القرآن جاءت على لسان مشركي قريش ﴿**لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[3]، والقريتان هما مكة والطّائف والرّجلان هما «مسعود بن عمرو» والآخر هو «الوليد بن المغيرة بن عمر بن مخزوم»، وهو القائل لو كان ما يقول محمّد حقاً لنزل علي القرآن أو على «مسعود بن عمرو».

أمّا والد المختار «أبو عبيد» فقد كان من جلة الصّحابة الأفذاذ وكان له في مضمار الجهاد ذكر محمود ويكفي للتدليل على ذلك موقفه المشرف في «واقعة الجسر»[4]، تلك الوقعة الّتي كانت استجابة لدعوة عمر حينما قرر فتح العراق وقد برهن «أبو عبيد» في هذه الواقعة ما يدلنا على فروسيته وبطولته، وقد ذهب ضحية هذه المعركة خلق كثير قتل فيها «أبو عبيد» وأخوه الحكم وابنه جبر، أمّا المختار فكان ابن ثلاث عشرة سنة يتحفز إلى الحرب ليأخذ بثأر أبيه ولكن عمّه -سعد- وقد شاهد هذه المعركة، كان يقبض عليه ضناً بحياته، ومن هنا نستطيع أن نقرر أنّ ولادته كانت في أوّل عام من هجرة النّبي(صلى الله عليه وآله).

وقد صار عمّه -سعد- بعد ذلك عامل علي(عليه السلام) على المدائن غير أننا لا نستطيع أن نقرر مدة ولايته على المدائن ولا تأريخ ولايته عليها بيد أنّه مما شك فيه أنّه بقي إلى أيّام صلح الإمام الحسن(عليه السلام) حيث بقي -سعد- يمرض الحسن(عليه السلام) في «المقصورة البيضاء» حتّى برأ من طعنة «الجراح بن سنان» الّذي أصابه بمغول في فخذه.

---

(1) جاءت هذه الفقرة في ترجمة الحجاج، لابن خلكان.

(2) في السّنة التّاسعة من الهجرة أرسل النّبي(صلى الله عليه وآله) جيشاً كثيفاً لغزو الطّائف كما يقول «البلاذري» في فتوح البلدان وحاصرها مدة شهرين وضربها بالمنجنيق ولكن ذلك لم يجد نفعاً فقفل النّبي(صلى الله عليه وآله) راجعاً إلى مكة لأنّ «ثقيفاً» كانوا أدرى بفنون الحرب غير أنّه بعد ذلك أرسلت ثقيف سادتها لعقد الصّلح مع المسلمين.

(3) سورة الزّخرف آية ﴿...﴾، يقول ابن حجر في الإصابة: ﴿.../.../...﴾، عن ابن حاتم، وابن مردويه عن طريق ابن عبّاس أنّها نزلت في رجل من ثقيف ورجل من قريش والثّقفي هو «مسعود بن عمرو» وفي المعارف لابن قتيبة ص﴿...﴾ كان جدّه مسعود هو المراد من قوله تعالى: ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

(4) كانت هذه الواقعة المسماة «يوم الجسر» في آخر رمضان عام ﴿...﴾ وقد بلغ من استشهد فيها من المسلمين ألف وثلاثمائة رجل، وقيل قرابة أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق.

ومما يذكر في هذا الصّدد أنّ سعداً شارك مشاركة فعلية في وقعتي الجمل وصفين ووقف في صفوف الإمام موقفاً مجيداً، أمره الإمام على «قيس، وعبس، وذبيان»[1]، وعقد له راية في وقعة الجمل فكان أمير هؤلاء في هذه الموقعة كذلك لم تفته النّصرة في واقعة صفين[2].

رافق المختار عمّه حين ولاه الإمام علي(عليه السلام) على «المدائن» فكان إذا غاب -سعد- استخلفه مكانه لما كان يجد في ابن أخيه من المقدرة والكفاءة في إدارة شؤون الولاية، وقد اتفق له ذلك مرة حينما ذهب عمّه ليقاتل «عبد الله بن وهب الرّاسبي» في خمس مائة فارس والتقى معه في كرخ بغداد وقد كان -عبد الله- خارجياً أعلن العصيان والخروج عن طاعة الإمام(عليه السلام) فكان المختار خليفته على المدائن[3].

وأمّه «دومة بنت وهب بن عمرو بن معتب» كانت من سيدات ثقيف وكان يذكرها المختار ويعتز بالانتساب لها فيقول «أنا ابن دومة» بنى بها أبو عبيد بعد عزوف شديد عن الزّواج وبعد امتناعه من التّزويج بنساء قومه حتّى رأى في المنام -فيما يروي الرّواة- كأن قائلاً يقول: «تزوج دومة فما تسمع فيها للائم لومة» أنجبت له عدة أولاد وهم: -خلا المختار- ما يأتي:

1- جبر
2- صفية
3- أسيد[4]
4- أبو جبر
5- أبو الحكم
6- أبو أمية[5]

أمّا جبر فقد قتل مع أبيه في واقعة الجسر وأمّا صفية فقد كانت زوج «عبد الله بن عمر» أدركت النّبي(صلى الله عليه وآله) وروى عنها «نافع» مولى ابن عمر -كما يقول ابن عبد البر في الاستيعاب- كذلك روت عن عائشة وحفصة، ومهما يكن الأمر، فقد كانت هذه المرأة أثيرة عند زوجها يحبها حباً عميقاً وينزلها من نفسه المنزلة السّامية، وقد استطاعت بهذه العاطفة أن تستغل زوجها وتحرضه ليفك أخاها من سجن «عبيد الله بن زياد» ويتوسط في إطلاق سراحه، وعبد الله بن عمر، كانت له الحظوة عند الأمراء والولاة لاعتزاله الخلافة ولما كان يتمتع به من شخصية ممتازة.

أمّا إخوته فقد أوصد التّاريخ علينا نوافذ البحث فلم نعد نعرف عنهم شيئاً.

وكان للمختار عدة زوجات، ولكن التّاريخ لم يذكر سوى ثلاث منهن تزوج بهن المختار على التّعاقب واحدة بعد الأخرى، أولاهن بنت النّعمان بن بشير الأنصاري، واسمها «عمرة» وكانت هذه الزوجة على جانبت عظيم من الحب والموالاة لزوجها الحبيب، وعلى جانب عظيم من العقيدة والولاء لآل البيت، عرض عليها «مصعب بن الزّبير» البراءة أو القتل حين فتك بزوجها وسبعة آلاف من أهل القبلة على حد قول «ابن عمر» حين عاب عليه ذلك فآثرت القتل على شدة عاطفة المرأة واستخذائها أمام الأمر الواقع وهي تقول:

شهادة ارزقها ثمّ اتركها؟ كلاّ إنّها موتة ثمّ الجنة، والقدوم على رسول الله وأهل بيته، ثم قالت: والله لا يكون آتي مع ابن هند فاتبعه واترك ابن أبي طالب وشيعته[6]، اللهم اشهد أنّي متبعة نبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته فأمر بها مصعب فأخرجت ما بين الحيرة والكوفة وقتلت صبراً[7]، وأخرى وتعرف «بأمّ ثابت» بنت سمرة بن جندب وقد كان له منها ابنان هما «إسحاق» و «محمّد» وهذه الأخيرة أيضاً عرضت على البراءة فآثرت الحياة ولعنت زوجها وتبرأت منه وقالت: «لو دعوتني إلى الكفر مع السّيف لأقررت أشهد أنّ المختار كافر»، وليس بخاف كلمة «مع السّيف» في هذا المقام من أنّها لم تكن لتعتقد بكفر زوجها في هذه الشّهادة وإنما إبقاء على حياتها.

وتزوج المختار بثالثة وهي «أمّ زيد» الصّغرى بنت سعد بن عمرو بن نفيل[8].

وبهذا العرض نستطيع أن نفهم بأنّ الشّجاعة والفروسية اللتين اكتسبهما المختار كانتا إرثاً من آبائه الّذين كانوا مضرب المثل في الدّهاء، قال الجاحظ في كتابه «الحيوان» «وثقيف من دهاة العرب» ونفهم كذلك أنّه سليل أسرة عربية توارثوا المجد كابراً عن كابر.

ولادته ونشأته

وفي أوّل عام من هجرة النّبي(صلى الله عليه وآله) في تلك السّنة الّتي نزل عليه «الأمين» وأمره بالهجرة إلى المدينة حتّى يأمن على حياته من كيد قريش في تلك السّنة ولد لأبي عبيد، ولدومة بنت وهب

(1) انظر الأخبار الطّوال ص(رضي الله عنه).
(2) الإصابة: (رضي الله عنه)/(رضي الله عنها).
(3) انظر الأخبار الطّوال ص(صلى الله عليه وآله).
(4) المعارف لابن قتيبة ص(رضي الله عنها).
(5) أخذ الثّأر لابن نما.
(6) مروج الذّهب: (صلى الله عليه وآله)/(رضي الله عنه).
(7) تاريخ الطّبري: (رضي الله عنها)/(رضي الله عنه).
(8) راجع المخبر لمحمّد بن حبيب الهاشمي ص(رضي الله عنها)، طبع حيدر آباد.

طفل يسميانه المختار ويلقب فيما بعد بـ«كيسان» ويكنى «أبو إسحاق» وهو أحد أبنائه من زوجه «أمّ ثابت» بنت سمرة.

وسبب لقبه بـ«كيسان» فيما تحدثنا الرّواة، أنّ أباه جاء به إلى علي(عليه السلام) وهو صغير فأجلسه على فخذه وجعل يمسح على رأسه وهو يقول «يا كيس يا كيس»..

أمّا موطن ولادته ومهده الأوّل فلم يتطرق له التّاريخ ولكننا إذا عرفنا أنّ الطّائف هي منبع ثقيف لا نتردد بالجزم بأنّ فتانا ولد بالطّائف والطّائف -كما رسمها المؤرخون- يقع على طرفي واد يقال له «وج» وهي بلدة مسورة تبعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشّرقي من مكة وعلى ارتفاع خمسة آلاف قدم من سطح البحر.

هذا من جهة موقعها الجغرافي، أمّا من جهة مناخها وعذوبة هوائها فتكاد تكون في الصّف الأوّل من البلدان الجميلة لما فيها من توفر الكروم والفاكهة من عنب وموز أمّا الزّبيب فيضرب المثل بجودته.

بهذه البيئة ولد المختار وبهذا الوسط أمضى سنيه الأولى، وإذا كانت قوى البيئة -كما يقول علماء التّربية- تؤثر في توجيه الطّفل وفي سلوكه، فإنّ منبته هذا قد أثر فيه أثراً كبيراً من الفطنة والذّكاء والقوة لأنّ ملكاته النّفسية ومؤهلاته كانت تستجيب دون أية مقاومة، ولا ننسى ظاهرة أخرى في هذا الصّدد وهو تربية الطّفل على الفروسية في تلك العصور، وعلى فنون الرّياضة كالمصارعة والعدو وركوب الخيل وهذه الأخيرة عادة متأصلة في نفوس العرب حتّى هذه العصور الحديثة، إلى غير ذلك من الألعاب الّتي تعود على النّاشئين بالحيوية والحياة وإعدادهم لممارسة الحروب.

بقي الوليد على هذا النّحو من التّربية، وفي ذلك الجو الطّليق ثلاث عشرة سنة كان في أثنائها هادئ البال مستقر النّفس في أحضان أسرة كريمة وبين أب يرمقه بعين الرّعاية والتّدليل، وأمّ تغذوه بحنانها وأمومتها حتّى شاء القدر أن يفجعه بأبيه وبقية أسرته، ويواجه صدمة نفسية من أعنف الصّدمات تلك هي من جراء فاجعته بأبيه في «واقعة الجسر»، وهذه الصّدمة الّتي أصيب فيها المختار وهو في غضون صباه قد تلقي علينا أضواء من تلك النّفسية الثّائرة الّتي كانت قلقة لا تستقر على حال حتّى تأخذ بثأر الحسين(عليه السلام) -كما سنرى- لأنّ فقدانه مجموعة من أسرته «ثقيف» ومعها أبوه بالقتل لا بالموت الطّبيعي ولأنّ هذا الفقدان والخسارة جاءا في عهد الطّفولة عند المختار العهد الّذي فيه تقرير المصير عند الإنسان من حيث التّوجيه النّفسي والسّلوكي في الحياة، أقول إنّ فقدان أبيه وبقية من قتلوا من أسرته ثمّ وقوع هذا الفقدان في زمن الصّبا هما اللذان كانا صدمة قاسية في حياة هذا الغلام الصّغير.

ومن ذلك نعرف أنّ هذه الصّدمة أثرت في نفس المختار تأثيراً قوياً بحيث أوجد في نفسه الحرمان، ومن ثمّ خلق في نفسه روح الثّورة والانتقام، الانتقام على المجتمع الّذي كان سبباً لفقدانه حنان الأبوة وحمايتها وعلى هذا نستطيع أن نفسر -نفسياً- قدرته الكافية ومؤهلاته لتحمله مسؤولية الأخذ بالثّار من مجموعة كبيرة من قتلة الحسين(عليه السلام).

وبعد هذه الفاجعة الّتي مني بها هذا الطّفل بخسارة أبيه وثلة من أسرته نلاحظه أنّه يبقى في المدينة[1] -مدينة الرّسول- ليتأدب ويتثقف وأخيراً ليتربى تربية علوية في ظل آل البيت.

وإذا ذكرنا المدينة يجدر بنا أن نصور الحياة العقلية بتلك الأثناء لاسيّما في عهد هذا الغلام الحدث لنعرف إلى أي مدى وصل في ثقافته وآدابه.

كانت المدينة -ولا ريب- من أخصب البلاد العربية علماً وأدباً، وقد كانت لا تضاهيها حتّى مكة من هذه الجهة ففيها المحدث وفيها الرّاوي وفيها من الصّحابة الّذين تاثروا بتعاليم النّبي(صلى الله عليه وآله) وبالسّنة النّبوية عدد غير قليل، وكان الطّلاب يفدون إليها بكثرة فائقة على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ولغاتهم.

وتفسر لنا كتب التّاريخ منشأ انتشار الثّقافة بالمدينة بهذا التّقريب «كان عمر يحرم أن توزع الأسرى في مواطن الحروب فكان يأتي بها أوّلاً إلى المدينة وكثير منهم من الفرس والرّوم وكانوا من الطّبقة الارستقراطية في قومهم ومتعلمين على النّمط الّذي ساد في أمتهم وقومهم فأقام منهم في المدينة كثيرون وكانوا موالي لكبار الصّحابة فصبغوا الحياة الإسلامية بعقليتهم الّتي تخالف بعض الوجوه عقلية العرب وكانوا قد ألفوا علماً منظماً وكتباً مدونة فأخذوا يتبعون هذه في تعاليم الإسلام»[2].

وقصارى القول فإنّ المدينة كانت في عهد هذا الغلام مهوى أفئدة الطّلاب وكانت كعبة يحج إليها طلاب العلم ورواد الفضيلة، ومما يجدر بالإشارة إليه في هذا المقام هو قيام الإمام «علي بن أبي طالب» في حركة علمية خطيرة في ذلك العهد ومعه تلميذه الأكبر وراويته «عبد الله بن عبّاس» في توجيه الأمّة الإسلامية عامة والعنصر العربي خاصة، فقد أخذ

---

(1) انظر الإصابة، في أسد الغابة: صلى الله عليه وآله وجاء فيه عن ابن سعد عن الواقدي في شهادة أبي عبيد قال فأقام المختار بالمدينة منقطعاً إلى بني هاشم ثمّ كان مع علي بالعراق.

(2) فجر الإسلام صلى الله عليه وآله

على عاتقه القيام بمحاضرات أسبوعية في «المسجد الجامع» من «فلسفة ومنطق وبلاغة وفقه وتشريع إسلامي»[1].

وهكذا تألفت نواة هذه الحركة في عهده وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة وواضع حجرها الأساسي، وقد بقيت هذه «المدرسة العلوية» تماشي العصور والأجيال وتساير موكب الحضارة الإسلامية تزدهر مرة وتخبو مرة نتيجة عسف بني أمية واستبدادهم ولاسيّما في وقعة الحرة الّتي هدمت فيها معظم المدارس والمنشآت العامة حتّى توجت في عهد حفيده الإمام جعفر بن محمّد الصّادق(عليه السلام)[2] وهذه الصّورة الّتي رسمتها عن الحياة الفكرية بالمدينة «منتزعة من التّاريخ» وما من شك أنّ من يعيش بهذا الوسط المزدهر بالعلم والعرفان لا بد وأن تنزع نفسه وتتأثر بملابسات هذه الحياة على قاعدة «الإنسان ابن بيئته».

أمّا عهوده الأولى بالتّلمذة وعن أي أستاذ تأثر في دراسته فذلك ما غفلت عنه المراجع التّاريخية، وهكذا نبقى حائرين وأبواب البحث موصدة في وجوهنا حتّى نراه وقد قيض له الحظ وهيأ له طالعه السّعيد الاتصال بـ«محمّد بن الحنفية» أخي الحسين لأبيه فتعلق به ووجد من هذا الأستاذ، ما دفع به قدماً في مجال الحياة الفكرية ثمّ توثقت أواصر الصّلة بينهما حتّى ارتفعت تلك الفروق الّتي تكون -غالباً- بين الأستاذ والتّلميذ.

ثمّ يذهب هذا التّلميذ يتأثر بأستاذه ويترسم خطاه ولاسيّما في أخذ الحديث[3] عنه، ومحمّد هذا أقل ما يقال في فضله وعلو كعبه وعمق مادته ما حدثنا عنه ابن الجنيد حيث قال: لا نعلم أحداً أسند عن علي عن النّبي(صلى الله عليه وآله) ولا أصح مما أسند محمّد[4] أو ما حدثنا محمّد بن هرون قال:

«كان محمّد بن الحنفية أحد الأبطال في صدر الإسلام وكان ورعاً واسع العلم»[5].

ولعل هذه الصّلة الوثيقة بين المختار ومحمّد تفسر لنا اتهامه بـ«الكيسانية من لدن خصومه وأصدقائه على السّواء».

وهكذا نشأ المختار بهذه النّشأة الطيبة حتّى تأثر بحب آل البيت تأثراً واضحاً، وقد أكسبته هذه الصّلة عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا تلين كما وأنّ ملابساته الحوادث قد زودته برصيد من الشّجاعة لا ينفد حتّى قال الحجاج عنه يوماً كما حدثنا الطّبري: «لله دره أي رجل ديناً ومسعر حرب ومقارع أعداء».

عصره

عاصر المختار في طوره الأوّل عمر وعثمان وشاهد -بلا ريب- الأحداث الّتي قام بها هذان الخليفتان ولاسيّما أيّام عثمان فقد كان في هذا الدّور أنضج فكراً وأرهف ذهناً ينهد إلى العقد الثّالث من حياته رأى محنة الخليفة من جهة ومحنة المسلمين من جهة أخرى حتّى أدت النتيجة إلى واقعة الدّار المشهورة وقتل عثمان.

أجل، لقد رأى كلّ ذلك المختار وليس هو بعيداً عن منبع هذه الأحداث ما دام في المدينة «بيئته الدّراسية» ثمّ يقتل عثمان وتنتهي مأساته وكان للمسلمين أن يجتمعوا على بيعة الإمام علي(عليه السلام) فبويع له، لا أشك أنّ صاحبي كان أحد المسلمين الّذين بايعوا علياً في المدينة ثمّ يتوارى المختار فلا نكاد نلمحه في غمرة الحوادث الّتي نجمت بعد البيعة، فلم يحدثنا التّاريخ عنه في واقعة الجمل بأنّ له مشاركة فعلية كما لعمّه «سعد بن مسعود» تلك الوقعة الّتي أذكت أوارها «عائشة بنت أبي بكر» ولا في وقعة صفين الّتي كانت أيضاً صدى لصيحة عائشة في حرب الجمل، ربما يكون مع عمّه في هاتين الوقعتين وربما قد تركه في المدينة أو المدائن، وعلى كلّ حال فقد كان في هذا العصر ونعني به عصر الإمام يرمق الدّولة الإسلامية عن كثب فيشاهدها وقد تحقق فيها العدل وانتشرت المساواة والحرية بين المسلمين فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتّقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالمسلمون جميعاً سواسية كأسنان المشط لا فضل بين الحر والعبد ولا بين السّيد والمسود.

وأعتقد أنّ الدّولة الإسلامية لو بقيت بعيداً عن الأحزاب والأطماع لأصبح المسلمون اليوم في رغد من العيش ولتحقق لهم العدل والحرية في الشّعوب على السّواء ولكن شاء الحزب الأموي أن يكيد للأمّة الإسلامية من طرف خفي -من أيّام عمر حتّى قتل عمر وقاتله غلام المغيرة بن شعبة وهو حليف بني أمية- ثمّ ظل يعمل تحت الخفاء والتّستر ويشنها حرباً شعواء أقل ما توصف به أنّها فرقت كلمة المسلمين وجرت في أذيالها حروباً دموية بين الطّالبيين والأمويين إلى أمد بعيد وأخيراً أفضت إلى مقتل الإمام علي(عليه السلام) وهو يستقبل الصّلاة، ويمضي دور علي(عليه السلام) ويسدل السّتار على مسرح الخلافة الإسلامية، وكان المختار آنذاك بالمدائن لا يبارح عمّه إلا أن تدعو الضّرورة فيأتي الكوفة بالخراج إلى الإمام، وكانت هذه

---

(1) مختصر تاريخ العرب ص.

(2) مختصر تاريخ العرب ص.

(3) ابن نما في رسالته لم يبرح المختار ما كان عليه منذ العهد العلوي من الانقطاع إلى آل البيت والتّزلف إليهم وولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة غادر المختار العراق حتّى أتى مدينة الرّسول وكان يجالس فيها محمّد بن الحنفية ويأخذ عنه الأحاديث.

(4) تهذيب التّهذيب: ج/ ص.

(5) تعليقة على وقعة صفين لنصر بن مزاحم.

الصّحبة الّتي أنفقها المختار في عهد الإمام قد أثرت فيه أثراً كبيراً من الموالاة والتّفاني لآل البيت.

ثمّ يظهر على المسرح «معاوية بن أبي سفيان» ويستقبل المسلمون -ومنهم المختار- عهداً لم يألفوه فهذا «ابن هند» يتطاول إلى الخلافة ويدعو إلى نفسه في كافة أرجاء الدّولة وقد قضى على حركة الإمام الحسن(عليه السلام) الّذي بويع له بعد أبيه مباشرة.

أينسى المسلمون موقف أبيه أبي سفيان وعدائه السّافر للنبي(صلى الله عليه وآله) ذلك العداء الصّريح منذ بدء الدّعوة إلى عام الفتح وكان يؤلب قريشاً ويحرضها على قتال النّبي(صلى الله عليه وآله) بكلّ ما أوتي من حول وقوة، ثمّ أسلم عام الفتح ولكن إسلامه «لم يكن إسلام القلب والجنان بل إسلام الشّفة واللسان».

ولما أسلم بهذا الإسلام الضّعيف تحت حد السّيف ورأى جيوش المسلمين قال للعبّاس: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً[1]، وظل أبو سفيان على هذه الشّاكلة يعتقد أنّ غلبة الإسلام هي غلبة على كبريائه، وقصة واحدة تغنينا عن الإطالة في هذه اللمحة هي كلمته النكراء في مجلس الأمويين.

«تلاقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فو الّذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار وإنما هو الملك»، أمّا زوجه هند ووالدة معاوية فيكفيها خسة وضعة موقفها من مصرع «حمزة بن عبد المطلب» حين راحت تبقر بطنه ثمّ تستخرج كبده وتصنع فيها صنيعها المعروف.

فهذا والد معاوية بن أبي سفيان وتلك هند بنت عتبة أمّه، ترى كيف تواجه الدّولة الإسلامية هذا الخليفة الجديد؟

ولو أنّ معاوية سار بسيرة الخلفاء وانتهج منهجهم كان خليقاً أن يظفر بغايته من هذا الملك العضوض ولكنه خرج على عنوان الخلافة وأحاط نفسه بأبهة الفرس والرّومان واتخذ لنفسه الحرس الملكي والمقصورة الملكية، وقد بذل في سبيل تركيز ملكه وتوطيده كلّ غال ورخيص وأباح لنفسه جميع الوسائل المغرية -وإن كانت محظورة- فقضى على كلّ حركة قامت ضده وسعى أوّلاً في إماتة بيعة الحسن(عليه السلام)[2]، ورشا زعماء القبائل بالمال، وكانت نهاية الرّواية الّتي تمت بينه وبين الحسن(عليه السلام) وعقد الصّلح ولكن بشروط أبي معاوية أن يفي له بواحد منها كذلك لم يستقر معاوية ويرى الإمام حياً على هذه الأرض فأغرى زوجته «جعدة بنت الأشعث» -في أصح الرّوايات- ومناها بالزّواج من يزيد، وأغدق عليها المال وانتهت قصة الحسن بهذه النّهاية المؤلمة.

(1) تاريخ مختصر الدّول: لابن العبرى.

(2) تروى رواية في نقد المختار بهذه المناسبة سنتعرض لها.

وقد كانت سياسة معاوية تبتني على قاعدة «الغاية تبرر الواسطة» فمهما كانت الواسطة محظورة عند العرف العام تكون مباحة في عرف معاوية فقد تصدى إلى شيعة علي(عليه السلام) وأخذ يعمل فيهم السّيف وقتل كثيراً منهم على الظّنة والتّهمة، يحسب أنّ القضاء على هؤلاء يزيد في توطيد ملكه وتثبيت عرشه ففتك بحجر بن عدي الكندي ورهط من قبيلته واعتدى على عمرو بن الحمق الخزاعي فقتله إلى كثير من هؤلاء الّذين ذهب دمهم هدراً حتّى شاع وذاع بين جنوده «إنّ لله جنوداً من عسل» يشيرون بهذه الكلمة إنّ من يغضب عليه معاوية يسقيه شربة من عسل مسموم.

وإذا استطاع معاوية بهذه الخطة الهوجاء أن يجتذب إليه قلوب بني أمية وبعض المرتزقة من النّاس فلم يتمكن أن يكون له شيعة يؤمنون به كخليفة شرعي وهذه الظّاهرة واضحة لا مراء فيها حتّى أنّ بني أمية أنفسهم كانوا ناقمين على معاوية لولا ما بذله لهم من مال وما أحاطهم به من عناية فكانت الحجاز تبغض معاوية بغضاً ظاهراً، أمّا الكوفة فهي أظهر الثّغور عداء لبني أمية عامة وذلك يرجع لأمرين:

أوّلاً- إنّ الكوفة كانت علوية المبدأ، وقد بذر فيها الإمام علي روح التّشيع يوم كانت عاصمة المسلمين بدل المدينة عام 36هـ حتّى يقال إنّه مر المختار ومعه «المغيرة بن شعبة» على سوق الكوفة فقال المغيرة:.. يا لها غارة ويا له جمعاً، إنّي لأعلم كلمة لو نعق بها -ولا ناعق لها- لاتبعوه ولاسيّما الأعاجم الّذين إذا ألقي إليهم الشّيء قبلوه، قال وما هي يا عمّ؟ قال يستأدون بآل محمّد(صلى الله عليه وآله)، فنستظهر من ذلك أنّ الكوفة كانت الأغلبية السّاحقة فيها هم الشّيعة وهم عنصر جدير بالاهتمام.

ثانياً- تلك السّياسة الّتي سار عليها معاوية حتّى قتل كثيراً من الشّيعة الكوفيين، وهذا الرّجع العكسي عادة يحدث رد الفعل الّذي كان من أهم الأسباب لسخط الكوفة على معاوية وبني أمية في جميع الثّورات.

كان المختار في أغلب الظّن مقيماً بالكوفة ولاسيّما في آخر عهد معاوية وكانت عنده ضيعة خارج الكوفة يستثمرها ويلتمس منها أسباب الرّزق كذلك كان لديه عدد كبير من الرّقيق، أمّا منزله فقد كان قريباً من المسجد وهو الّذي نزل فيه «مسلم بن عقيل» أوّل قدومه الكوفة فالمختار على كلّ حال كان بتلك الآونة شخصية لها في نفوس عارفيه منزلة ومكانة، وقد كان غير بعيد عن هذه الأحداث الّتي نجمت في الكوفة فكان أسبق إنسان يذيع فضائل آل البيت ويذكر مساوئ بني أمية بيد أنّه على تستر وخفاء حيث الحكم الصّارم والسّياسة الجائرة، وكأنّه كان ينتظر الثّورة الجامحة ضد هذا التّيار الجارف ولكنه

لا يدري متى يكون؟ ومتى يتحقق ذلك اليوم فنراه يسأل «معبد بن خالد الجدلي» وكأنّه يخاف فوات الفرصة:

«يا معبد إنّ أهل الكتب ذكروا أنّهم يجدون رجلاً من «ثقيف» يقتل الجبارين وينصر المظلومين ويأخذ بثار المستضعفين ثمّ وصف أهل الكتب صفته فلم يصفوا صفة في الرّجل إلا وهي فيّ: غير خصلتين، إنّه شاب وقد جاوزت السّتين من عمري وإنّه رديء البصر وأنا أبصر من عقاب، فقال «معبد»: فإنّ ابن السّتين والسّبعين عند أهل ذلك الزّمان شاب، وأمّا بصرك فما تدري ما يحدث الله تعالى فيه»[1].

إذاً كان يعلم من نفسه الثّورة ضد الظّلم والطّغيان ولكن الجو بعد لم يمهد له طريق الثّورة حتّى إذا هلك معاوية واستخلف يزيد وكان أنْ ثارت الكوفة تطلب الحسين(عليه السلام) في إصرار وهنا يبرز المختار ويظهر على مسرح الحياة السّياسية.

في الميدان السّياسي

سبق أن عرفنا بأنّ المختار كان في نهاية عهده الماضي قد تأثر تأثراً قوياً بنتيجة تفاعله مع عصره الأمر الّذي أدى إلى سخطه الشّديد لبني أمية، ولكنه لم يظهر على مسرح الحياة ولم يشترك في تلك الأحداث حتّى تظهر لنا صورته واضحة الألوان والظّلال، ولكنه هنا حين يعمل في الحياة السّياسية وحين يشترك مع مسلم ويدخل السّجن ومن ثمّ يرحل إلى الحجاز ليبايع عبد الله بن الزّبير تظهر لنا معالم شخصيته، فنحن إذاً يجب أن ندرسه على ضوء هذه الأحداث الّتي اعتبرناها أوّل دخوله «في الميدان السّياسي».

كانت الكوفة -كما رأيناها- أظهر الثّغور عداء لبني أمية وكانت متأهبة إلى الثّورة فراحت تطلب الحسين في إصرار وما كان من الحسين وقد بلغته من الكتب ما يقرب من اثني عشر ألف كتاب، فقرر عند ذلك السّفر إلى العراق ولكنه بعث ابن عمّه مسلم بن عقيل ليستوثق من البيعة، وأقبل مسلم.

وهنا يجب أن نلاحظ أنّ مسلماً لم يشأ أن يختار بيتاً لإذاعة دعوته غير بيت المختار فنزل فيه، وليس نزول مسلم في بيت المختار بالشّيء اليسير إذا نظرناه من وجهة الظّروف الرّاهنة آنذاك ومن وجهة دعوة جديدة يراد بها قلب نظام جماعي يدين بالولاء لبني أمية فهو على أية حال يعطينا صورة واضحة عن عقيدة هذا الرّجل الّذي جعل من بيته ندوة ينشر منها دعوة الحسين(عليه السلام) بالرّغم من كثرة الشّيعة وولائهم للإمام.

نزل «ابن عقيل» في بيت المختار وأخذ يبشر بالدّعوة الجديدة وكانت الشّيعة تختلف إليه بين حين وحين وهو يقرأ عليهم كتاب الحسين وهم يبكون فرحين ثمّ يعدونه من أنفسهم النّصرة والقتال حتّى بلغ من بايعه اثني عشر ألفاً وقيل أكثر من ذلك، أمّا في تقدير «ابن كثير» فثمانية عشر ألفاً، وكان من جملة من بايعه ودعا النّاس إليه هو المختار، حدث هذا والنّعمان ابن بشير الوالي الرّسمي ليزيد بن معاوية ولكن جماعة من بني أمية لم يسكتوا عن هذه الدّعوة فكتبوا إلى يزيد بجلية الحال وما كان من يزيد إلا أن بعث «عبيد الله بن زياد» واليه على البصرة ويضم إليه الكوفة، ثمّ تدور الدّائرة وإذا بعبيد الله بن زياد يصبح أميراً على الكوفة «وسيفه وسوطه على من ترك أمره وخالف نهيه» وإذا بالنّعمان بن بشير ينقم عليه يزيد لسكوته عن مسلم حتّى قوي أمر الشّيعة، وإذا بأهل الكوفة الّذين بايعوا مسلماً بالأمس القريب يتخاذلون عنه بين مخذل وخائف ومرتاب.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أنّ هناك جماعة من الشّيعة الكوفيين كانوا ينتظرون الفرصة للوثوب -كان أحدهم المختار- في حكومة النّعمان ويقصونه عن الولاية ولكن مجيء ابن زياد كان سبباً في خنق هذه الحركة، حيث أنّ أوّل عمل قام به هو القضاء على هذه الحركة ثمّ عمد فثبط عزائم قادتها وهناك ظفر بهم فسجنهم في بيوتهم وجعل عليهم رقابة شديدة، ومنهم من غيبه في غياهب السّجن.

لم يكن يعلم المختار بهذا الحدث، ولم يدر بخلده أن يتخاذل النّاس عن مسلم ثمّ يسلمونه للسيوف وهم يتفرجون لأنّه كان كما يروى في قرية له خارج الكوفة تسمى «لقفا» وحين علم بذلك أقبل بمواليه وطائفة من قبيلته لتلافي الموقف ومعه «عبد الله بن الحارث» وهو يحمل رايته الخضراء حتّى انتهى به المطاف إلى «باب الفيل» وهو «أحد أبواب مسجد الكوفة» ولكنه رأى فور وصوله ما لم يكن يقدر أن يراه، رأى الكوفة وهي تموج بحركة قوية عنيفة وعلى رأسها السّفاح «عبيد الله بن زياد» يصفعها بالسّيف والسّوط فماذا سيكون موقفه ضد ذلك التّيار الجارف؟ أتراه يقاتل بتلك الجماعة الضّئيلة؟ كلا، ولكنه الاستسلام والخضوع للأمر الواقع وليدخر ما عنده من قوى إلى فرصة أخرى، فلبث وهو لا يدري ما يصنع حتّى أشير عليه أن يجلس تحت راية «عمرو بن حريث» -راية الأمان- ليأمن على حياته من هذا الطّاغية فقبل مشورة ذلك الرّجل الّذي أشار عليه بالدّخول تحت الطّاعة والخضوع ولكنه قال ما يدل على تأثره وانزعاجه «أصبح رأيي مرتجناً

(1) أخذ الثّار لابن نما.

لعظم خطيئتكم» وأكد عمرو هو الآخر أن يشهد له بالبراءة إن بلغ الأمير عنه ما يريب.

ورأى الصبّح حين أسفر المختار وقد مثل أمام ابن زياد.

ابن زياد: أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل وتتولى أبا تراب وولده.

المختار: أمّا علي وأولاده فإنّي أحبهم لمحبة رسول الله، وأمّا نصرتي لمسلم فلم أفعل، فانبرى عمرو عند ذلك وشهد له بالبراءة، ولكن ابن زياد أبى أن يستجيب لهذه الشّهادة فيخلي سبيله، بل عمد إلى سوط واستعرض به وجهه ضرباً حتّى أدماه، كما أصاب عينه فشترها، وهذا المشهد العدواني لا شك قد أثر في نفسه تأثيراً قوياً وأوحى إليه بالقسوة والانتقام وبخاصة من «ابن زياد» الّذي حاول أن ينفذ فيه القتل ولكن شهادة عمرو خففت من حدة الموقف فأمر به فغيب.

في غيابة السّجن

وإلى هنا عرفنا أنّ السّبب الرّئيسي لسجنه هو قيامه بهذه الحركة السّياسية ضد الدّولة ونصْرته لمسلم غير أنّ أحد المؤرخين[1] يعزو ذلك إلى سبب آخر، ومؤداه أنّ ابن زياد حين خطب في المسجد عقب مقتل عبد الله بن عفيف الأزدي ذلك الّذي غضب عليه في جرايته بحضرته وأخذ ينال من الحسين ويبرر صنعه في واقعة كربلاء، ولكن المختار يبرز إليه من بين الصّفوف ليرد عليه في عنف وقسوة ويكذب مقالته، فيكون مصيره -كما تحدثنا الرّواية- أن يدخل السّجن، وكيفما كان السّبب في ذلك فمن الثّابت أنّه قد دخل السّجن في هذه الفترة وهو غير آيس من العودة إلى الحياة الحرة لمواصلة ثورته لأنّ البطل الّذي يقوم بما قام به المختار من أعمال جبارة لا يمكن أن يتسرب إليه اليأس والنّكوص، فإذا عرفنا بأنّه لم يكن رجلاً عادياً ولا من سائر النّاس، أدركنا بأنّه رجل مليء بالثّقة والاطمئنان شأنه في ذلك شأن بقية الأبطال الثّائرين فمن المؤكد بأنّه يدري بوثوق بأنّ الحركات السّياسية معرضة للفشل كما أنّها معرضة للانتصار، وهو يدري بأنّه هو وأمثاله ينبغي لهم أن يعيدوا الكرة مرة أخرى إذا هم فشلوا في حركاتهم ومن شأنهم أنّهم يحاولون مرة بعد أخرى حتّى ينتصروا، أمّا اليأس والتّراجع فهما من صفات الجبناء المغفلين لا من صفات الأبطال النّاهضين، فهو إذاً كلّه أمل ورجاء في المستقبل.

لهذا نحن نرى أننا لا نعدو الواقع -وإن لم يذكره التّاريخ- إذا تصورنا المختار في السّجن وهو يقضي الأشهر الّتي قضت بها عليه السّلطة الموقتة أنّه كان ينظر بروحه ويطمح إلى المستقبل المشرق بالظّفر، وأنّه ينظر إلى نفسه نظرة الاطمئنان وإلى الزّمن الّذي يمر عليه نظرة الانتظار، فهو على أية حال صامد ينتظر السّاعة الّتي سوف يخرج بها ويعمل في الحياة السّياسية الثّورية، آملاً أن يحقق ذلك بعد أن يعمد إلى الخلاص من السّجن حين تنتهي هذه الظّروف أو تأتي فرصة تسمح له بالخروج، فهو واثق من أنّه يحطم أغلال السّجن ويعيد العمل في الحقل الّذي نذر نفسه من أجله وهو الطّلب بثأر الحسين.

وظل بهذه الخواطر ونحوها وهو في محبسه بـ «قصر الإمارة»[2] حتّى انبثقت في ذهنه فكرة كانت هي طريق خلاصه من السّجن، وهي أن يكتب إلى عبد الله بن عمر ليقوم في إطلاق سراحه، يقول المؤرخون أنّ شقيقته -صفية- قامت بدورها في هذا المضمار بنصرته فحرضت زوجها أن يكتب إلى يزيد بن معاوية بهذا الكتاب.

«.. أمّا بعد فإنّ عبيد الله قد حبس المختار وهو صهري وأنا أحب أن يعافى ويصلح من حاله فإن رأيت -رحمنا الله وإيّاك- أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته والسّلام..».

وكتب يزيد إلى واليه «عبيد الله» بهذا الكتاب: «... أمّا بعد فخل سبيل المختار حين تنظر في كتابي هذا..» وحالما وصل الكتاب إلى واليه أمر بإحضار المختار وأطلق سراحه ولكنما قال له.. «قد أجلتك ثلاثاً فإن أدركتك بالكوفة فقد برئت منك الذّمة».

وخرج المختار بهذه الصّورة الّتي وصفناها من محبس عبيد الله ليتوجه إلى الحجاز ولكنه يصادف أثناء الطّريق في مكان يدعى «واقصة» رجلاً يسمى «ابن عرق» -وهو مولى لثقيف- فقال هذا الرّجل، مالي أرى عينك على هذا الحال؟ قال فعل بي ذلك «ابن الزّانية» ويعني به «ابن زياد» قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأعضاءه إرباً إرباً ولأقتلن بالحسين عدد الّذين قتلوا بيحيى بن زكريا وهم سبعون ألفاً[3].

وهذه النّفسية الثّائرة تفسر لنا تماماً ما ادعيناه فيما سبق من أنّه ينبغي على مثله أن يعيد الكرة مرة بعد أخرى ويعمل في الحياة السّياسية الثّورية حتّى يظفر بالنّجاح، كما أنّها تلقي علينا أضواء من بيعته وعلاقته.

---

(1) جاءت هذه الرّواية في مقتل الخوارزمي: ﷺ/ﷺ.

(2) قصر الإمارة، شيد في عهد سعد بن أبي وقاص فكان يعرف بقصر سعد وبقصر الإمارة ثمّ صار منزلاً خاصاً للولاة والأمراء والملوك وبقي إلى عام ﷺهـ فهدمه عبد الملك وكان طول القصر ﷺمتراً وعرضه ﷺمتراً وفيه أبراج أربعة قطرها ستة أمتار ومحيطها ﷺمتراً، مقتبس من تاريخ الكوفة صﷺ.

(3) تاريخ الطّبري: ﷺ/ﷺ.

مع ابن الزّبير:

وأوّل ما يبدوا لنا -قبل الخوض في بحث بيعة المختار لابن الزّبير وقبل أن نعرض وجهة نظرنا فيها- أن نشير إلى أنّ ابن الزّبير كان في تلك الفترة في بداية عهد جديد ودعوة إلى الخلافة باسم الطّلب بدم الحسين فحينما جاء المختار إلى مكة -كما يقول الرّواة- علم ابن الزّبير بمقدمه ثمّ حضر عنده وسأله بدوره عن نفسيات أهل الكوفة وما هم عليه فأجابه المختار جواباً كشف فيه نوايا أهل الكوفة فقال «هم في السّر أعداء وفي العلانية أولياء» فقال ابن الزّبير:

«.. هذه والله صفة عبيد السّوء إذا حضر مواليهم خدموهم وإذا غابوا عنهم شتموهم..».

وانبرى إليه المختار يقول: ذرني من هذا وأبسط يدك لأبايعك وأعطني ما أرضى به لأكون لك من الدّعاة في الحجاز، فسكت ابن الزّبير وكأنه لم يصادف هوى من نفسه بهذا الشّرط الأخير فتركه المختار ومضى إلى الطّائف حتّى أنّه ليم بعد ذلك فقال: «وإنّي لما رأيته استغنى عني أحببت أن أريه أنّي مستغن عنه».

وصفوة القول فقد بقي المختار عاماً كاملاً قضاه في الطّائف ثمّ عاد ثانياً إلى مكة وحضر عند ابن الزّبير وبايعه.

وهنا يجب أن نلاحظ بدقة أنّ المختار لم يبايعه كبقية النّاس بل كانت له ميزة خاصة وظاهرة أخرى تتفاوت عن بقية من بايعه نلمسها بالشّروط الّتي أخذها عليه وفرضها هو الآخر على نفسه كعقد من العقود يجب الوفاء به.

والشّروط كما يلي:

1- أبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني.

2- أكون أوّل من تأذن له وآخر من يخرج من عندك.

3- إذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك[1].

وهذه الشّروط -كما تراها- محكمة وغاية في الدّقة، ففي «الأوّل» أنّ ابن الزّبير لا يقدر أن يبت في أمر من الأمور دون أن يأخذ رأي المختار ومشورته فيه، وفي «الثّاني» وهو أن يدخل أوّل من يدخل عليه ويخرج آخر من يخرج منه، ومعناه أن يكون وزيره المقرب الّذي لم تخف عليه خافية من أمور الدّولة الضّيقة النّطاق، وفي «الثّالث» أن يستعين به على عمله متى ظهر -ابن الزّبير- كخليفة على المسلمين، ويغلب على ظني أنّ هذا الشّرط إنما أخذه المختار على ابن الزّبير ليوليه ثغر الكوفة فيثأر من قتلة الحسين ولكن ابن الزّبير التوى عليه بهذه الشّروط فتركه المختار وانصرف.

(1) الطّبري: ﷺ/ﷺﷺﷺ.

ومهما يكن الأمر، فإنّ هذا لم يبرر موقفه معه وبيعته له بالشّكل الّذي نرتضيه في الوقت الّذي نعلم يقيناً أنّ ابن الزّبير كان عثماني العقيدة وهذه الحقيقة لا مراء فيها والمختار يناقض هذه العقيدة تماماً فهو علوي المبدأ والعقيدة فكيف يجوز له -والحالة هذه- أن يبايع ابن الزّبير ويخضع لسلطته ويدخل تحت طاعته!

ويمكننا أن نلتمس عذراً للمختار في انضمامه إلى ابن الزّبير والانقياد إليه، وهو أنّه كان يعلم عداءه للأمويين وبغضه لهم وحقده وحنقه عليهم بصورة لا تقبل الجدل، فانضم إليه ليقوي بذلك الحزب الثّائر على السّلطة الأموية لا إيماناً بقضية ابن الزّبير ولا حباً وإخلاصاً له.

ولنستوضح هذه الحقيقة علينا أن نلاحظ موقفه معه ضد الدّولة الأموية ومحاربته لهم محاربة الأبطال وذلك حينما جهز يزيد حملة قوية لقتال أهل مكة تحت قيادة الحصين بن نمير خليفة مسلم بن عقبة فكان يقاتلهم وهو يقول:

«إلي إلي أنا ابن عبيد بن مسعود وأنا ابن الكرار لا الفرار أنا ابن المقدمين غير المحجمين، إلي يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار» فحمى النّاس يومئذ وأبلى وقاتل قتالاً شديداً.

فموقفه هذا مع ما نعرفه من خطته ونفسيته الثّائرة الّتي تدفعه إلى اتخاذ جميع الوسائل في سبيل تحقيق هدفه وهو الطّلب بثأر الحسين كلّ ذلك يدلنا بجلاء ووضوح من أنّه لم يبايع ابن الزّبير إلا لكونه خارجاً عن طاعة بني أمية، يضاف إلى ذلك أنّ المختار لم يكن بالرّجل العادي الّذي يعترف لابن الزّبير بالخلافة حتّى يمد إليه يده صاغراً، وهو يعرفه جيداً ذلك الرّجل المماليء المنحرف في عقيدته ومذهبه ذلك الرّجل الّذي شب على عداء آل محمّد(ﷺ) حتّى ظهر العداء فيه واضحاً حين ترك الصّلاة على النّبي(ﷺ)، أثناء خطبته حتّى نقده النّاس ولاموه فقال كلمته النّكراء الّتي تعرب لنا عن مدى عقيدته.

«إنّ له -أي النّبي(ﷺ)- أهل بيت سوء إذا ذكرته اشرأبت نفوسهم إليه وفرحوا فلا أحب أن أقر أعينهم بذلك».

إذاً كانت بيعة المختار لابن الزّبير وسيلة لا غاية وسيلة، يهدف بها إلى تحقيق مآربه وآماله ولذا حينما علم أنّ ابن الزّبير لا يحقق ما يصبو إليه ولا ينفذ طلباته الأولية ولا يفي له بالشّروط الّتي اشترطها عليه انسحب عنه وأخذت الصّلة تتضاءل وتخبو فلم يبق معه غير خمسة أشهر ثمّ فارقه بعدها لأنّه لم يجد عنده ما يشبع رغباته الأولية، غير أنّه لم يفارقه ليظهر له تأثره وانفعاله بل قال له «إنّي لأعلم قوماً لو أنّ لهم رجلاً له رفق وعلم بما يأتي ويذر لاستخرج لك منهم جنداً

تقاتل بهم أهل الشّام، فقال من هم؟ قال شيعة بني هاشم بالكوفة، قال كن أنت ذلك الرّجل»[1].

ومن هنا نعلم صحة قول من يرى من المؤرخين[2] تولية المختار الكوفة من قبل ابن الزّبير حتّى يقال أنّه اتهم بدعواه إلى نفسه فعزله وولى مكانه غيره ونحن نرى من مراجعة المصادر الموثوق بها، أنّ ابن الزّبير لم يول المختار الكوفة في حال من الأحوال، وإنما قدمها المختار وعليها إذ ذاك عبد الله بن يزيد واليه على الكوفة ثمّ عزل هذا وولى مكانه عبد الله بن مطيع وعلى أية حال فمن المؤكد بأنّ صاحبنا انصرف عنه وهو حانق عليه وفي نفسه منه أشياء وأشياء وهو يقول كما يقول المدائني:

ذو مخاريق وذو مندوحة ... وركابي حيث وجهت ذلل
لا تبيتن منزلاً تكرهه ... وإذا زلت بك النّعل فزل

والآن وبعد هذه الدّراسة الّتي ذهبنا بها مع المختار متتبعين خطواته خطوة خطوة، وقد وضحت لنا -كما نعتقد- عبقرية هذا الرّجل وحنكته ونشاطه السّياسي يجب علينا بعد هذا كلّه أن ننتقل معه إلى الكوفة فقد أوشك على السّفر ليعيد نشاطه مرة أخرى وليجد في الكوفة ما يصبو إليه من النّهضة والأخذ بالثّأر من قتلة الحسين.

إلى السّجن

لم يكد يصل المختار الكوفة ليستأنف العمل من جديد وليذيع دعوته على الشّيعة الكوفيين حتّى راح يلهب عزائمهم إلى النّضال والثّورة ورائده الطّلب بثأر الحسين، وقد استطاع بفضل ما أوتي من لباقة وحنكة أن يضم إليه حزباً قوياً ويجمع حوله عدداً غير قليل، غير أنّ فريقاً من أذناب بني أمية لم يرتضوا هذه النّغمة الّتي رددها المختار في النّوادي والمجتمعات وفي منزله فعمدوا إلى إيقاف نشاطه وشل حركته حتّى ظفروا بأمنيتهم، وراح المختار إلى السّجن نتيجة شغبهم ونفاقهم.

وفي هذه المرحلة لم يترك الدّعوة في الأخذ بالثّأر بل كان وهو في سجنه يتلوى تحت سياط الظّلم والجور ويعاني مرارة السّجن من آل الزّبير، ونراه يكتب إلى التّوابين وقد عادوا مثقلين بالهزيمة أنّه هو رجلهم الوحيد الّذي يبلغ بهم الغاية، أو يدخل عليه حميد بن مسلم فيتدفق ثورة وانتقاماً ويقول:

«أما ورب البحار والنّخل والأشجار والمهامه القفار والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار لأقتلن كلّ جبار بكلّ لدن خطار ومهند بتار في جمع من الأنصار ليسوا بميل أغمار ولا بعزل أشرار، حتّى إذا أقمت عمود الدّين ورأيت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النّبيين، لم يكبر علي زوال الدّنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى».

فتأمل هذا الأسلوب الصّارخ الّذي انفجر كالبركان ثورة وحماسة ودل على اعتداد في النّفس وإرادة قوية، كما دل -في الوقت ذاته- على فن من فنون الأدب لما تضمنه من صناعة الأسجاع، والسّجاعة -كما يعرف البيانيون- باب من أبواب الأدب له في حقل «البيان» موضوعية كبيرة وهي -لما تتضمنه من كلّ فاصلة أو فاصلتين بقافية واحدة- يكون لإيقاعها على السّمع ولأثرها في النّفس وقع جميل، على أنّ «الشّهرستاني» في «الملل والنّحل» لم يرتض هذا الأسجاع من المختار ويتهمه بالإسفاف والرّكة في جميع فواصل الفكرة، ونحن لا نرتضي هذا القول مطلقاً لما نجد في هذه السّجاعة الّتي سمعناها وتذوقناها من القوة والأداء بحيث تتفق مع الموقف الّذي كان فيه والّذي يستوجب إثارة الهمم والعزائم في هذا الأسلوب الخطابي المثير، يضاف إلى ذلك أنّ هذا الأسلوب تبدو فيه الصّورة واضحة في جميع خطوطها وألوانها حتّى يسمو -في نظرنا- إلى مصاف العباقرة في هذا المضمار، ولعلنا نعرض في ثنايا الكتاب نماذج من هذه الصّور الفنية، حتّى يقف القارئ الكريم على ما ندعيه ونذهب إليه، ومهما يكن الأمر فقد فتق ذهنه هذا السّجن فأجاد في هذه الصّناعة إجادة ممتازة وأسمعنا أدباً عالياً كما تجلت بذلك مواهبه الأدبية وعبقريته في هذا الميدان، وكيفما كان فقد ظل المختار في السّجن وهو يحاول الخروج لإنهاء مهمته، وصادف في الأثناء رجوع التّوابين من الجزيرة فاشلين في ثورتهم فكتب إليهم رسالة يدعوهم إلى نصرته وليشفعوا له بالخروج.

«.. أمّا بعد فإنّ الله أعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين، إنّكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم حسنة، فابشروا، فإنّي لو خرجت إليكم لجردت سيفي فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم السّيف بإذن الله فجعلتهم ركاماً وقتلتهم فرداً وتوأماً، فرحب الله لمن قارب واهتدى ولا يبعد الله إلا لمن عصى وأبى والسّلام على من اتبع الهدى..».

وقرأ التّوابون هذه الرّسالة فأرسلوا إليه رجلاً يقول له:

... قد قرأنا الكتاب ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك فعلنا، ففرح المختار وأثلج قلبه وأدرك أنّه قد ظفر بأنصار جدد من الشّيعة وهم التّوابون كما وأنّه قد شكر لهم هذه العناية والحفاوة به وقال إنّه يوشك أن يخرج من السّجن فلا حاجة

(1) مروج الذّهب: ج4/ص.
(2) رغبة الآمل ص.

إلى وساطتهم في هذا الأمر لأنّه كان قد بعث إلى عبد الله بن عمر كتاباً ليشفع له بالخروج وهذا هو نص الكتاب: «... أمّا بعد فإنّي قد حبست مظلوماً وظن بي الولاة ظنوناً كاذبة فاكتب في يرحمك الله كتاباً عسى الله أن يخلصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويمنك والسّلام».

وكتب عبد الله من فوره بهذا الكتاب إلى الولاة:

«... أمّا بعد فقد علمتما الّذي بيني وبين المختار من الصّهر والّذي بيني وبينكما من الود فاقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتما سبيله حين تنظرون في كتابي هذا..».

وخلص المختار من السّجن للمرة الثّانية، بهذه الصّورة الّتي وصفناها ولكنما طلب إليه الولاة الّذين حكموا عليه بالسّجن هذه المدة الّتي قضاها كفلاء يضمنونه كي لا يثور أو يقوم في حركة تصطدم ومصلحة الدّولة، فتقدم إليه عشرة من ثقات الكوفة فضمنوه وتعهدوا أمام الولاة بعدم قيامه في أية حركة، كذلك لم يكتفوا بهؤلاء الكفلاء حتّى أخذوا عليه عهد الله وميثاقه وحلفوه «بالله الّذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشّهادة والرّحمن الرّحيم» لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما من سلطان فإن هو فعل وأحنث كان عليه ألف بدنة ينحرها لدى تاج الكعبة ومماليكه كلّهم ذكرهم وأنثاهم أحرار فخلف لهم بذلك وانصرف إلى منزله.

واجتمع إليه جمع من الشّيعة فساله أحدهم عن قسمه ذاك، فقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة هزء وسخرية.

«... قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنّي أفي لهم بأيمانهم هذه، أمّا حلفي فإنّي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها ادع ما حلفت عليه وآتى الّذي هو خير واكفر عن يمني وخروجي عليهم خير من كفي عنهم، وأمّا هدي ألف بدنة فهو أهون علي من بصقة، وأمّا عتق مماليكي فوالله لوددت أنّه تم لي ثمّ لم أملك مملوكاً أبداً..».

ولنترك المختار في الكوفة يجمع إليه أشتات الشّيعة من هنا وهناك وليكوّن له بالتّالي عدداً كبيراً يحارب بهم عمال ابن الزّبير وينتصر، ولندرس الآن أوّل نهضة بالكوفة هي نهضة التّوابين ثمّ نعود فندرس نهضته هو على ضوء التّاريخ، والسّبب لهاتين النّهضتين مزدوج من الأخذ بالثّار ومن كراهية الحياة بالذّل والاضطهاد وتكون دراستنا عن هذه الحركة بشيء من التّفصيل حتّى نستطيع على ضوئها أن نتفهم بجلاء الغاية الّتي نهض من أجلها المختار.

التّوابون

حركة التّوابين كانت نتيجة حتمية ورد فعل لما صنعه يزيد في معركة كربلاء، وكانت هذه الحركة التّوابية والّتي اندلعت نيرانها بسرعة هي نفسها الّتي أخمدها «ابن زياد» في عهد «مسلم بن عقيل» وحينما قتل الحسين بدأت هذه الفكرة أو الحركة تتطلع مصطبغة باسم «التّوابين».

حيث رأى هؤلاء أنفسهم فجأة يخزهم وقر النّدم في تأخرهم عن نصرة الحسين فنذروا أرواحهم هذه المرة قرابين لتجزر في مذبحة عظيمة تعرف بـ «عين الوردة» وهي رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة، ولم يسلم من هؤلاء غير جماعة استطاع رفاعة بن شداد -خليفة سليمان بن صرد- إن يرجع بهم إلى الكوفة.

ففي العام الّذي قتل فيه الحسين وهو عام 61هـ بدأت الحركة ولكنها لم تنشط حتّى دخل عام 65هـ وفي هذه الفترة كانوا يجتمعون في منزل «سليمان بن صرد» فيلقون الخطب الحماسية الّتي تثير نشاطهم ويودعون ما يجمعونه من آلة الحرب والأعتدة في منزل «عبد الله بن وآل» فهذا -مثلاً- «سليمان بن صرد» زعيم الحركة وصاحب النّبي وقريب الإمام علي(عليه السلام) والعضو المهم في الحزب السّياسي الّذي عقده الإمام الحسن(عليه السلام) في يثرب وقد ساهم مساهمة عظيمة في وقعتي الجمل وصفين يرى هذا الشّيخ نفسه في بلبلة نفسية لأنّه قد قصر عن نصرة الحسين في الوقت الّذي كان معذوراً فيه من الوجهة الدّينية ولا يتحلل من هذا الآثم بغير التّوبة وتزكية نفسه بالقتل فيقف خطيباً ويقول:

«إنّا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل البيت نمنيهم النّصرة ونحثهم على القدوم فلما قدموا ونينا وعجزنا وأذهلنا حتّى قتل فينا ولد حبيبه وسلالته وبضعة من لحمه ودمه إذ جعل يستصرخ ويسأل النّصف فلا يعطى...

اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرّماح، ألا انهضوا فقد سخط الله عليكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله، ولا أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله، ألا لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلا ذلّ وكونوا كبني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم «ألا إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم، واقتلوا أنفسكم»

وعلى هذا الغرار بقية زعماء التّوابين من النّشاط والحركة المستمرة والتّحمس الشّديد ولو ترى «المسيب بن نجبه» وهو ثاني بطل عرفته هذه المعركة وهو يقوم على الحشد خطيباً لعرفت مدى تأثر هذا الزّعيم وانفعاله في القعود عن نصرة الإمام».

«قد كنا مغرمين بتزكية نفوسنا فوجدنا الله كاذبين في نصر ابن بنت نبيه وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله واعذر إلينا فسألنا نصرة فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قويناه ولا طلبنا له النّصرة إلى عشائرنا فما عذرنا عند ربنا وعند لقاء نبينا؟ وقد قتل فينا ولد حبيبه وذريته ونسله، لا والله لا عذر لنا دون أن تقتلوا مَن قتله أو تُقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا».

أمّا «عبد الله بن الحر الجعفي» الّذي ندبه الحسين إبّان المحنة وآثر القعود وعدم النّصرة فقد عبّر لنا عن أسفه البليغ بقوله:

فيا لك حسرة ما دمت حياً
تردد بين حلقي والتّراقي
حسين حين يطلب بذل نصري
على أهل الضّلالة والنّفاق
فقد فاز الأولى نصروا حسينا
وخاب الآخرون أولي النّفاق

وهذا آخر يقوم ويدعو النّاس إلى الخروج ويرى أنّه قد صحا من غفوته كأنّه في غيبوبة عميقة ويسمعنا شعراً مؤثراً:

صحوت وودعت الصّبا والغوانيا
وقلت لأصحابي أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى
-وقبل الدّعا- لبيك لبيك داعيا
سقى الله قبراً ضمّن المجد والتّقى
بغربية الطّف الغمام -الغواديا
فيا أمّة تاهت وضلت سفاهة
أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

حتّى إذا هلك يزيد ودخل عام 65هـ وكانت فترة ضعف الدّولة الأموية فرصة استغلها التّوابون لاسيّما «وعبد الله ابن الزّبير» في أوائل عهده بالخلافة، هبّ إذ ذاك التّوابون ينادون في الكوفة، «يا لثارات الحسين» وخرجوا ساعين نحو قبر الحسين ليتوبوا عنده ولكنّهم لم يخرجوا دون أن يشاهدوا تأثير صيحتهم المدوية في أرجاء الكوفة، فهذا رجل يقال له «عبد الله بن حازم» يهرع من توه إلى منزله فيلبس ثيابه ثمّ يتقلد سيفه ويركب فرسه ويخرج في شبه جنون حتّى يلتحق في موكب «التّوابين» وكانت عنده زوجة جميلة وأثيرة عنده استوقفته قائلة أجننت؟! قال لا، ولكنّي سمعت داعي الله فأنا مجيبه ثمّ أطلب بدم هذا الرّجل حتّى أموت، فتقول له في ذعر.

إذاً إلى من تودع بنيك هذا قال إلى الله ثمّ أردف يقول:

اللّهم إنّي استودعك ولدي وأهلي اللّهم أحفظني فيهم وتب علي مما فرطت في نصر ابن بنت نبيك:

وهذا رجل آخر يسمع تلك الصّيحة يقال له «كرب بن نمران» فيثور من حينه ويطلب سلاحه ويركب فرسه فتقف ابنته مذهولة وقد راعها هذا المشهد.

... يا أبتي مالي أراك تقلدت سيفك ولبست سلاحك.

... يا بنية إنّ أباك يفر من ذنبه إلى ربّه.

ومهما يكن من أمر هؤلاء فإنّ الكوفة شاهدت ذلك اليوم مشهداً رهيباً وجيشاً لجباً يخرج في طلب ثأر الحسين عدته لا تقل عن خمسة آلاف مقاتل حتّى إنّ «عبد الله بن يزيد» أمير الكوفة خشي مغبة هذه الرّحلة الّتي كان يتمناها في قرارة نفسه لإضعاف بني أمية والقضاء عليهم بأية صورة، ولكنّه مع ذلك أشار على سليما أن يتريث ولا يعجل في الرّحيل حتّى يقدم «ابن زياد» ضالتهم وقد عهد إليه قتال أهل الجزيرة الّذين خرجوا عن طاعة بني أمية حتّى يكون سليمان وشيعته على أهبة واستعداد أما إذا خرج إليه بهذه الجماعة الضّئيلة كان وشيكاً أن يخسر المعركة وتذهب أتعابه أدراج الرّياح ولكنّ سليمان أبى أن يصغي لمشورة الوالي وراح يطلب الآخرة تكفيراً لذنوبه.

وسار التّوابون وفي مقدمتهم زعماؤهم الخمسة فأظلهم اللّيل أوّل ما أظلّهم في موقع يقال له «دير الأعور» ولما أسفر الصّبح ساروا حثيثاً حتّى نزلوا في مكان يقال له «أقساس بني مالك» على شاطئ الفرات وعند الغداة وصلوا قبر الحسين وصاحوا صيحة واحدة وضجوا بالبكاء والعويل وهم يرددون في خشوع.

اللّهم ارحم حسيناً الشّهيد ابن الشّهيد...

اللّهم إنّا نشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم.

«اللّهم إنّا خذلنا ابن بنت نبينا(ﷺ) فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا وارحم حسيناً وأصحابه الشّهداء الصّديقين وإنّا نشهدك أنّا على دينهم وعلى ما قتلوا عليه، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وبقي سليمان آخر من بقي من أصحابه يتضرع عند القبر ويستغفر لذنوبه ويأتي آخر وهو «وهب بن زمعة» فيبكي

الحسين بأبيات «عبد الله بن الحر الجعفي» كأنّه أراد أن يواسي أميره في البكاء واللّوعة والتّوبة:

تبيت النشاوى من أمية نوماً
وبالطّف قتلى ما ينام حميمها
فأقسمت لا تنفك نفسي حزينة
وعيني تبكي لا تجف سجومها
حياتي أو تلقى أمية خزية
يذل لها -حتّى الممات- قرومها

وغادروا المرقد الشّريف وبودهم لو أقاموا عنده حتّى يطمئنوا من غفران ذنوبهم وسيئاتهم ولكنّهم ساروا وقلوبهم مفزعة فوق أجسامهم بقيادة عميدهم على طريق الأنبار حتّى انتهوا إلى هيت ومن ثمّ إلى قرقيسيا، ووجدوا في هذه المدينة من وجههم إلى خطط حربية هو «زفر بن الحارث الكلابي» كما زودهم في إبل كثيرة وما تحتاجه من علف، ونزلوا بـ «عين الوردة» المكان الّذي صرعوا فيه.

وشهد يوم الأربعاء من شهر جمادى الأوّل عام 65هـ معركة حامية اشتبك فيها أنصار الحقّ مع أنصار الباطل، كان النّصر في بداية الحرب يعقد للتّوابين ولكنّه كان نصراً مؤقتاً فلم يلبث التّوابون -بعد عدّة معارك- أن أبيد معظمهم وبقيت فلول منهم استطاع «رفاعة بن شداد» أن ينفذهم من وطيس الحرب ويعود بهم إلى الكوفة وظلّوا بعد هذه الموقعة قابعين في بيوتهم ينشدون الفرصة الّتي تتاح لهم في العودة إلى القتال ولكنّ على يد من يحقق أملهم ويأخذ بثأرهم فلم يجدوا كفؤاً لرجل تتوفر فيه هذه الخلال غير المختار فبايعوه مخلصين.

والآن يجدر بنا أن نلقي نظرة عامّة على هذه الحركة الّتي فشلت كما رأيتها في هذه المعركة ولنلمس الدّوافع الّتي دفعتهم لهذه الانتفاضة ضدّ بني أمية، فنقول:

لا شك بأنّ الدّوافع الّتي اندفعوا وراءها لا تخلوا في الحقيقة من أمرين لا ثالث لهما، أمّا أن تكون دوافع خارجية بمعنى أنّهم ثاروا بتأثير عامل خارجي، أو بدوافع نفسية كانت من وحي أنفسهم وما ألهمته لهم عقائدهم الدّينية، أمّا الدّوافع الخارجية فلم يثبت تاريخياً أنّهم نهضوا بوحي من آل الزّبير الّذين كانوا -بلا ريب- يودون في قرارة أنفسهم أضعاف بني أمية والقضاء على حكمهم، كما أنّه لم يثبت بأنّهم ثاروا بتحريض من الإمام «علي بن الحسين(عليه السلام)» لأنّ ظروفه السّياسية آنذاك وحالته الّتي تكتنفه بوجه عام لم يسمحا له بأن يقوم بتحريض جماعة مثل هؤلاء، ولا يمكن أيضاً أن يخطر على البال أنّ حزباً آخر من الأحزاب المعارضة هو الّذي حرض التّوابين على النّهضة ولو كانت الدّعوة العباسية في بدايتها لاحتملنا أن تكون هذه الحركة من تحريضها فعلى هذا التّقريب لم تكن هذه المحتملات صحيحة ولا قريبة إلى الذّهن كما رأينا مع العلم بأنّها لم يذكرها التّاريخ بل ذكرناها نحن على وجه التّحقيق والتّحليل، وإتماماً لذلك نرى أنّ احتمالاً أخيراً قد يخطر على الذّهن يتعلق بسليمان بن صرد -زعيم الحركة- من أنّه هو المؤثر الخارجي على هؤلاء الجماعة لأجل أن يستغلها للحصول على السّيطرة أو الزّعامة، ولكنّنا نقول على الفور من أنّ هذا الاحتمال باطل كسوابقه حيث أنّ التّاريخ لم يذكر لنا هذا الاحتمال الّذي يمكن بسهولة أن يتقول به الأمويون وهم في سلطانهم بعد ما فشل سليمان في حركته وقتل، ومعروف ما في الأمويين من صفة التّهريج والتّشنيع على معارضيهم، فالّذين يتهمون الحسين -ابن بنت رسول الله- بأنّه خارجي فمن أيسر وأقرب ما يكون عليهم أن يتهموا سليمان بأشنع التّهم وأفظعها، وعلى هذا فإنّ سليمان بريء من احتمال حيازة السّلطة أو الزّعامة إلى نفسه، وحقيقة الأمر كما نرى أنّه رجل كسائر التّوابين غير أنّه امتاز عليهم بالحنكة السّياسية والدّهاء العسكري، ولذا وقع عليه الاختيار وتزعم الحركة التّوابية.

أمّا الدّوافع النّفسية الّتي نرجحها أن تكون الدّافع الوحيد للقيام بالثّورة، هي أنّ المجتمع الكوفي الّذي وقف بأغلبيته السّاحقة إلى جانب يزيد لحرب الحسين لا يخلو من جماعات كانت تود نصرة الحسين وقد اعتقلها يزيد لإيقاف نشاطها السّياسي وجماعة أخرى تخاذلت عن نصرة الحسين من وطأة الإرهاب الخانقة الّتي هيمنت عليهم، وجماعة أخرى وقفوا إلى جانب يزيد طمعاً في ماله وإرضاء لنفوسهم المبالة -بطبيعتها- إلى متع الحياة الّتي تقتنصها في الوقوف إلى جانب القوّة والسّلطان، وقد جمعت هذه الجماعات الثّلاث وحدة الغاية ووحدة الهدف بعد قتل الحسين ورجع كلّ إلى صوابه ورشده وثاب إلى عقله وانتبهوا فجأة إلى واقع الحال من أنّهم وقفوا موقفاً غير مشرف من مقتل الحسين وتركوه يقتل إلى جانبهم وواقعة الطّف بضجتها الّتي لا مثيل لها في التّاريخ قد أحدثت في نفوسهم ردود فعل تجلّت في النّدم والتّوبة، فهؤلاء الجماعات وغيرها رأت أنّ أحسن ما يرضي ضمائرهم ونفوسها أن تقوم بهذه الثّورة طلباً للثّأر ووفاء بالواجب الّذي تقاعسوا عنه لمختلف الأسباب والظّروف.

وصفوة القول فقد كان التّوابون بنهضتهم مدفوعين بدافع أنفسهم نتيجة لرد الفعل الذي أحدثته واقعة كربلاء.

على أبواب الثّورة

لم يكن فشل التّوابين في معركتهم الحاسمة بالجزيرة ليضعف من عزيمة المختار أو يقلل من نشاطه بل ضاعف ذلك من همّته، وأحاله إلى شعلة متأججة إلى الثّورة والانتقام، وكان لا يفتر يجمع إليه الشّيعة، أمّا أن يخطب فيهم ليثير فيهم روح الحماس، أو يدعوهم للانضواء في جمعيته الّتي اسماها «المسعودي» في «مروجه» «الجمعية الحسينية»، وكان مما ساعده على توسيع نطاق الحركة وذيوعها هو رواج فكرة الكيسانية القائل بإمامة محمّد بن الحنفية، فقد كانت هذه الدّعوة سائدة في المجتمع الكوفي، ولها دعاة في كلّ مكان وقد تجمعت هذه الفكرة -كما يقول صاحب فرق الشّيعة- من السّواد والدّهماء وتوسعت تدريجاً حتّى شملت بعض مدن الحجاز.

ووجد المختار هوى من نفسه بهذه الدّعوة لأنّها تتفق ومبادئه وإن لم يتبناها كعقيدة ولكنّها على كلّ حال تحقق بعض أهدافه من الدّعوة لآل البيت والانتقام من شيعة بني أمية، فضم إليه معظم هؤلاء معتقداً أنّه سيدك بهم عرش بني أمية ويظفر بغايته المرجوة، وكان في كل فرصة تتاح له يحاول أن يثور غير أنّه لم تكن هناك فرصة حقيقية يستطيع فيها الثّورة، فالكوفة تحت إمرة آل الزّبير يتوارثها الولاة واحداً بعد واحد، فلم يكد يعزل «عبد الله بن يزيد» حتّى يولي مكانه «عبد الله بن مطيع» وهما ما هما من السّياسة والإرهاب لولا أنّ في سياسة «ابن مطيع» شيئاً من اللّين ونشطت الحركة في عهد «ابن مطيع» وبلغ ذلك الوالي فأرسل عليه ليدخله في السّجن ولكنّه تمارض هذه المرة حينما قرأ عليه الرّسول «زائدة بن قدامه» آية من القرآن ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ**﴾ فأفلت من الوالي ولم يسجن هذه المرة.

وبالإضافة إلى قوّة هؤلاء الولاة، وشدة حيطتهم فإنّ هناك عنصراً قوياً يحارب حركة المختار هو الحزب الأموي، فإنّ الكوفة في ذلك العهد كانت مجمع الأشتات، ففيها الأموي المتعصب في أمويته، وفيها الخارجي وفيها الشّيعي المتفاني في حبّه لآل البيت وهم الأغلبية السّاحقة من السّواد ولكنّهم عزل من المال والسّلاح أمّا آل الزّبير فهم السّلطات الحاكمة - أثناء الحركة- من والٍ وأمير خراج وأتباع هؤلاء من جنود ومرتزقة.

فلم يظفر المختار من هذه العناصر المختلفة والمضادة له على طول الخط بغير عدد ضئيل من الشّيعة كان أكثرهم من الكيسانية، فحاول أن يثبت بهم في «المحرم» ولكنّهم لم يستجيبوا لدعوته دون أن يستوثقوا من تحصيل الرّخصة من محمّد بن الحنفية وانصرفوا إليه.

ولكنّ الحظ ساعده هذه المرة فلم يلبث النّفر الماضي إلى محمّد أن عاد وهو يحمل في حقيبته الأذن والسّماح من «ابن الحنفية» و الرّخصة في الأخذ بالثّأر فقد قال لهم مشجعاً وباعثاً فيهم روح العزم والنّشاط والثّورة «فوالله لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه» ولكنّ «محمّد بن الحنفية» لم يستقل بإعطاء الرّأي وحده دون أن يأخذ رأي ابن أخيه علي بن الحسين زين العابدين فقد قال له «يا عم لو أنّ عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت لوجب على النّاس مؤازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت».

فسمع الوفد هذه المقالة فخرج وهو يرددها وقد عزم من حينه على الالتحاق بالمختار والانضمام إليه -كما حدثنا بذلك ابن نما- والحقّ أنّ هذه الخطوة الجبارة كسبته شهرة وذيوعاً وبدأ النّاس يصغون إلى أحاديثه وينظرون إليه في إكبار معجبين مؤملين ولكنّهم أشاروا عليه في تلك الحال أن يدعو إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي إلى البيعة ووافق المختار...

وذهب جماعة إلى إبراهيم على سبيل التّمهيد وشرحوا له المسألة كأوضح ما تكون فقبل الفكرة دون تردد ولكنّه حاول أن يرشح نفسه رئيساً لا مرؤوساً فقيل له:

«إنّما ندعوك لأمر قد اجمع عليه رأي الملأ من الشّيعة إلى كتاب الله وسنة نبيه(ﷺ) والطّلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدّفع عن الضّعفاء»، بعد أن قال له أحدهم «أنت لذلك أهل ولكن ليس إلى ذلك سبيل؛ هذا المختار وقد جاءنا من قبل المهدي وهو الرّسول والمأمور بالقتال قد أمرنا بطاعته» فسكت إبراهيم.

ومضت أيام ثلاثة ومشى المختار تحفّه جماعة من شيعته بينهم «الشّعبي وأبوه شراحيل» و«هو من الثّقات عند العامّة» مشوا إلى إبراهيم:

وبعد أن استقر بهم المكان ورحب إبراهيم بالزّعيم الجديد ترحيباً حاراً افتتح المختار معه الكلام «إنّ الله أكرمك وأباك في موالاة بني هاشم ونصرتهم ومعرفة فضلهم وما أوجب الله من حقهم «ثمّ قال» وهذا كتاب محمّد بن علي وهو هو خير أهل الأرض اليوم وابن خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله يأمرك أن تنصرنا وتؤازرنا فإن فعلت اغتبطت وإن امتنعت فهذا الكتاب حجة عليك وسيغني الله محمّداً وأهل بيته عنك».

يقول «الشّعبي» وكان المختار قد دفع إلي كتاباً مختوماً حين خرجنا من المنزل فلمّا فرغ من كلامه هذا قال ادفع الكتاب إلى إبراهيم فدفعته إليه ففضه وقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله لا آله ألا هو».

«... أمّا بعد فإنّي قد بعثت إليكم وزيري وأميني الّذي ارتضيته لنفسي بقتال عدوي والطّلب بدماء أهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنّك أن نصرتني، وأجيب دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة، ولك أعنة الخيل وكلّ جيش غاز وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام...».

وتتمة الكتاب في بعض المراجع:

«علي الوفاء بذلك علي عهد الله فإن فعلت نلت به عند الله أفضل الكرامة وأن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله أبداً»[1] وتلكأ إبراهيم بادئ الأمر ولكنّه سرعان ما قبل الفكرة وبايع المختار حينما شهد له مشيخة المصر والثقاة فيهم.

ولابدّ لنا من الوقوف عند هذا الكتاب الّذي ذهب فيه المؤرخون مذاهب شتّى فمن قائل بأنّه مزور ليس له من الصّحة ومن قائل بأنّ مشيخة المصر «الكوفة» شهدوا -خلا الشّعبي وأبوه شراحيل- أنّ هذا الكتاب هو من «محمّد ابن الحنفية» وفيه الرخصة والسّماح بمناصرة المختار أمّا «الدينوري» وهو الثّبت فلم يستثن واحداً من ثقات المصر بل يطلقه بلفظ العموم فيروي ما نصه.

«قال القوم نشهد أنّ هذا كتابه حين كتبه»[2].

ولكنّ الحقّ أنّنا إذا رجعنا إلى تاريخ هذه القصة نجد أنّها لم تأت عفواً وعلى سبيل الصّدفة بل أنّ لها أساساً وطيداً هو عامر الشعبي مروج هذه الدّعاية السيئة الّتي تشبث بها بعض المؤرخين واتهموا المختار بتزوير الكتاب.

والآن لنترك الحديث إلى الشعبي ليقول:

قال الشعبي: «ودخلني وحشة من شهادة النّفر الّذين كانوا معي أنّهم رأوا محمّد بن الحنفية حين كتب الكتاب إلى إبراهيم فأتيت إلى منازلهم رجلاً رجلاً فقلت هل رأيت محمّد بن الحنيفة حين كتب ذلك الكتاب؟! فكلّ يقول نعم، وما أنكرت من ذلك فقلت في نفسي إن لم استعملها مع الأعجمي - ويعني به أبا عمرة صاحب المختار- لم أطمع فيها من غيره فأتيته في منزلته وقلت ما عاقبة أمرنا هذا إن ينصب النّاس جميعاً لنا، فهل شهدت محمّد بن الحنفية حين كتب الكتاب؟ فقال ما شهدته حين كتبه، بيد أن أبا إسحاق عندنا ثقة، وقد أتانا بعلامات من ابن الحنيفة فصدقناه -ثمّ يقول الشعبي بعد هذه الجولة- فعرفت عند ذلك كذب المختار وتمويهه، فخرجت من الكوفة حتّى التحقت بالحجاز»[3].

هذا كلّ ما كان يريد أن يقوله الشعبي في حقّ المختار وكلّ ما كان يدور في نفسه من إحباط هذه الثّورة حتّى التحق بالحجاز ليقترب إلى عاهلها عبد الله بن الزبير ولسنا الآن بصدد محاسبة الشعبي في عمله هذا ولكننا نريد أن نقول أنّ له يداً في إشاعة الفرية التي هذه طبل لها أكثر المؤرخين واتهموا المختار في تزوير هذه الرّسالة على أنّ حقيقة أخرى يجب أن نشير إليها في هذا المقام وهو ما كان بين الشعبي والمختار من الأحن المتقادمة بينهما والعداء السّافر بحيث يفسر لنا بجلاء قيامه بهذه الحملة ضدّ المختار.

ذكر ابن الأثير في «أسد الغابة» أنّه كان بين المختار والشعبي ما يوجب أن لا يسمع كلام أحدهما في الآخر غير أنّ هذه الكلمة غاضت ابن حجر فذكر أنّها غير صحيحة باعتبار أن الشّعبي لم ينفرد بما حكاه عن المختار والشعبي مجمع على ثقته والمختار بالعكس واستشهد بهذه الدعوى من عدم انفراد الشعبي فيما يتقوله من إسناد دعوى النّبوّة للمختار وما يقال من حديث رفاعة.

وعلى هذا التّقرير لا يسعنا المصادقة لما ذهب إليه بعض المؤرخين من تزوير الكتاب، وكيف يصح لنا أن نتهمه بالكذب مادام لم يكن لدينا مدرك صحيح يصح أن نركن إليه أو نأخذ به، والتّاريخ -كما رأيناه- مضطرب غير ثابت على قول، ولماذا لا نحتمل أنّه جاء به المختار حين كان بالحجاز أو أنّه جاء به النّفر الّذي ذهب إلى محمّد ليتأكد من الرّخصة والسّماح، ولكنّ المختار لم يجاهر بالحقيقة لظروف سياسية خاصة ولأن الفكرة بعد لم تنضج، وحينما رأى بوادر النّجاح جاهر بالحقيقة.

هذا هو رأيي في الكتاب ولكلّ باحث رأيه.

وهكذا استطاع المختار أن يضم إلى حزبه الحسني عضواً فعالاً هو «إبراهيم بن مالك الأشتر»وإبراهيم -كما هو معروف- له المكانة والمقام الممتاز في نفوس الشّيعة لما له ولأبيه من المواقف الدّفاعية عن آل بيت الوحي كذلك كانت لديه قبيلة كبيرة ذات عدد وعدة وهي تطيعه وتكاد تعبده حبّاً، وكان إلى جانب ذلك شجاعاً مطرقاً لا يهاب الألوف من الرّجال وسنراه -نحن- سيظل مناضلاً عن مبدئه بعقيدة وثبات في جميع الثّورات الّتي نشبت في الكوفة فكان القائد المحنك

(1) جمهرة رسائل العرب ﷺ/ﷺ.

(2) الأخبار الطّوال للدينوري ص ﷺ.

(3) الأخبار الطوال ﷺ.

والفارس المغوار الّذي لا يجاري، حتّى استطاع أن يوطد ملك صاحبه بمهارة ونشاط عظيمين.

ومما يجب ذكره والتّنبيه إليه في هذا المقام إيضاحاً وإتماماً لهذا البحث نقول:

لا شك بأنّ المختار -كما رأيناه في الفصول السّابقة- أنّه كان من محبي أهل البيت ومن المتعصبين لهم وهذا هو الدّافع القوي الّذي حمله على طلب الثّأر إرضاء لحبّه وعقيدته كما وقد وجد في المجتمع -وقد مرت الإشارة إلى ذلك- قبولاً للدعوة إلى المطالبة بدم الحسين(عليه السلام) ووجد كذلك أن مقعد الزّعامة لأخذ الثّأر شاغر وأنّ في نفسه الاستعداد الكافي والكفاءة للقيام بهذه المهمة، كلّ أولئك خلقت من نفسه ذلك البطل ومن مجتمعه ذلك الميدان، وبذلك نعرف أنّ حركته كانت من وحي حبّه لآل البيت أضف إلى ذلك أنّ آل البيت أنفسهم قد أرخصوه في هذه الحركة، أمّا ما حدثنا التّاريخ من دعوته لمحمّد فليس في ذلك من بأس، حيث أنّ المختار كان يهدف بحركته الوصول إلى المركز الّذي يخوله أن يأخذ بثأر الحسين كما عاهد نفسه بدعوته الصّريحة وفي خطبته -كما سنرى- عقب الثّورة حينما بايعه أهل الكوفة، وقد أجاز لنفسه أن يتخذ أي سبيل قصير يضمن به الوصول إلى الغاية المتوخاة والغاية الشّريفة تبرر الواسطة، فلذا وجد أنّ الدّعوة لمحمّد وهو كبير أهل البيت سناً والشّخصية المرموقة في المجتمع في ذلك العهد هي أقرب الطّرق الّتي توصله إلى مبتغاه على أن هذا لم يثبت في التّاريخ بشكل واضح -ونعني به الدّعوة لمحمّد- فهناك بعض الإشارات إلى أنّه دعا للإمام -علي بن الحسين- ولكننا نعتقد أنّ دعوته كانت ضمنية غير مباشرة، لأنّ الإمام -في أغلب الظّن- كانت تكتنفه ظروف سياسية قاسية ولأنّه أحوج ما يكون للمحافظة على حياته، ودعوته في الحقيقة -وهي الأخذ بالثّأر-معناها الوقوف إلى جانب الإمام زين العابدين وأنّ نصرة الحسين هي نصرة لزين العابدين، ومن هنا يتضح لنا أيضاً أنّه لم يهدف بهذه النّهضة بغير الطّلب بالثّأر فلا الرّئاسة ولا السّلطنة كانتا مما يفكر فيهما المختار، لأنّ الّذي يصل ما وصل إليه من الرّئاسة يجب أن يقف من أوّل يوم ويغير اتجاهه وخطته بينما نراه على العكس من ذلك فقد ظلّ محافظاً على طابعه وخطته الّتي رسمها لنفسه وأخذ يتتبع قتلة الحسين بكلّ إصرار، ومن المؤكّد المجزوم فيه أنّ الّذي يدخل هذا الميدان الخطر المحفوف بالأهوال والمخاطر والّذي أدت نتائجه الحتمية إلى القتل والانهيار، ولا يمكن أن يتطرق إليه الشّك فيتهم بحب الرّئاسة أو السّلطنة أو الملك أو أمثال هذه الأقاويل الفارغة، بينما لو هادن قتلة الحسين واستهواهم بعد نيله لهذا المنصب لاحتفظ به أمداً طويلاً منعماً بالهدوء والاستقرار فعلى هذا فضل الثّبات على عقيدته الأولى الّتي نذر نفسه لها وإن كان تنفيذها يؤدي به إلى القتل.

وبهذه اللّمحة استطعنا أن نتفهم الغاية الّتي نهض من أجلها المختار.

اندلاع الثّورة

وكان عبد الله بن مطيع -كما رأيت- والياً على الكوفة فلم يكن يغرب عن باله نشاط حركة الشّيعة وتهيؤهم للوثوب فراح يعد لهذه الثّورة العدة الكافية من آلة حرب وسلاح وجنود مدربين لأنّه كان -ولاريب- قد بلغه من طغمة بني أمية وأنصار ابن الزّبير ماكان عليه أمر الشّيعة من القوّة والحماس وترددهم في كلّ ليلة إلى بيت عميدهم المختار وهم يراجعون المشورة في الوثوب لاسيّما وفيهم إبراهيم ذو القوّة والأيد وذو الصّولة والبطش.

وعليه فقد عمد «عبد الله» إلى جمع قواده في «قصر الإمارة» وأنفذ لكلّ منهم جيشاً حتّى يرابطوا في سكك الكوفة «وجبابينها» وهي مقابر قريش ليكون هؤلاء مسؤولين بعد في قمع هذه الحركة الّتي بدأت تشب عن الطّوق وتتمخض عن زعيمها، المختار بن أبي عبيد.

كان ذلك عام 66هـ من ربيع الأوّل في خلافة عبد الملك بن مروان وراح عبد الله يوجه قواده على الصّورة التّالية:

1- سعيد بن قيس الهمداني إلى جبانة السّبيع من همدان.
2- كعب بن كعب الخثعمي إلى جبانة بشير.
3- زجر بن قيس إلى جبانة كندة
4- شمر بن ذي الجوشن الضّبابي إلى جبانة سالم.
5- عبد الرّحمن بن منقذ إلى جبانة الصّيدائيين.
6- يزيد بن الحرث بن رويم إلى جبانة مراد.
7- شبث بن ربعي إلى السّبخة[1].

وكان عدد هذا الجيش قرابة عشرين ألفاً في مقابل أربعة آلاف وهي مجموع عدد جيش المختار: فهل ترى هؤلاء الأمراء يقضون على حركة المختار؟ كلا، ولكنّهم سيذهبون مخذولين أمام تلك الزّمرة الّتي وطنت نفسها على الموت فقد وقفت ذلك اليوم موقفاً حسناً حتّى ربحت المعركة.

وجاء إبراهيم على عادته في كلّ مساء، وبدا واضحاً لديه أنّ «عبد الله بن مطيع» قد حشد أفواه السّكك بالجيوش وملأ الجبابين بالعدة والعدد وأخذ الحيطة لنفسه ومصره من هذا الخطر، ولكنّ إبراهيم لم يحفل لهذا التّأهب أو يثني من عزيمته بل أقبل تلك اللّيلة ومعه حشد من عشيرته يريد صاحبه في شجاعة واستبسال، ومرّ بالسّوق عامداً حيث قد بلغه هذا

(1) مقتل الخوارزمي عليه السلام/عليه السلام عليه السلام

الحدث من ابن مطيع فكأنّه أراد أن يرعب قلوب الأعداء ويريهم –بالوقت نفسه– هوانَهم وضعفهم بإزاء قوته وبطولته.

وكان «عبد الله» قد وضع أميراً على شرطته يقال له «إياس بن مضارب» وهو الّذي وشى عند ابن مطيع وأطلعه على هذه الحركة فأمره «عبد الله» أن يرابط في السّوق لايني لحظة واحدة فلما جاز إبراهيم بفتيته المناجيد وكانوا كلّهم قد لبسوا السّلاح واستلئموا للقتال وهم إذ ذاك «إياس» أن يعترضهم ويقف في طريقهم وبالتّالي يمسكهم ليقدمهم أسرى إلى الأمير صاغرين، فوثب إليه إبراهيم وطعنه في رمح رجل همداني في ثغرة نحره وقع منها «إياس» يتخبط في دمه ثمّ رقد.

وما كاد هذا النّبأ يصل إلى «ابن مطيع» حتّى أصدر أمره بتعيين ابنه راشداً، ومكان راشد الّذي كان في «الكناسة» سويداً المنقري.

ووصل إبراهيم إلى صاحبه ونشوة الظّفر لا تفارق شفتيه فقد حمل معه رأس إياس وقص قصته لصاحبه وعما وقع له في الطّريق فكاد المختار يطير فرحاً وتفاءل بالنّجاح ثمّ دعا سعيد بن منقذ الهمداني حتّى يشعل النّار في القصب وينادي مناديه في الكوفة.

يا لثارات الحسين – يا منصور أمت – يا أيّها الحي المهتدون إنّ أمين آل محمّد ووزيرهم قد خرج فنزل «دير هند» وبعثني إليكم فاخرجوا إليه.

وقد صكت أسماع القوم نداءات المختار فهبوا خفافاً من دورهم مرددين:

يا لثارات الحسين يا لثارات الحسين

ويجيء دور المختار فقد عمد إلى سلاحه فتقلده حتّى يبرهن في هذا اليوم على قوته وليحقق ذلك الحلم الّذي طالما راوده في جميع مراحل حياته وخرج وهو يردد أبيات مروان.

قد علمت بيضاء حسناء طلل واضحة الخدين عجزاء كفل

إنّي غداة الرّوع مقدام بطل لا عجز فيها ولا وغد فشل

وتهيأ للنضال: ولندعه الآن يجمع إليه أشتات الشّيعة المتفرقين هنا وهناك ونرى ماذا صنع قائده إبراهيم.

أمّا إبراهيم فقد عمد لاستنفار عشيرته وحضّهم على الحرب، وما لبث أن عاد وهو على رأس جيش كبير يجوز بهم سكك الكوفة متنكباً المواطن الّتي حشدت بالجيوش.

ومنذ تلك اللّحظة تنبعث الشّرارة الأولى.

وأوّل من قابله مدد من جند زجر بن قيس كان قد أرسلهم هو ليقيس بهم مدى خصمه غير أنّ إبراهيم فاجأهم بحملة منكرة ففرقهم في البيداء ولاذوا بقاعدتهم جبانة كندة وانتهى إبراهيم إلى هذا المكان فسأل مَنْ صاحب الخيل في هذه الجبانة؟ فقيل له زجر بن قيس:

فكر عليهم ثانياً وهو يقول:

«اللّهم إنّك تعلم إنّا غضبنا لأهل بيت نبيك وثرنا لهم فانصرنا على هؤلاء وتمم لنا دعوتنا» حتّى كشفهم وفرق صفوفهم في البيداء وصادفه في خلال ذلك «سعيد بن عبد الرّحمن» في مدد طويل استطاع إبراهيم أن يهزمه وجنده حتّى أدخله «الكناسة» وقرر أخيراً أن يذهب إلى صاحبه فقد خلفه منذ أمد في حرب مستعرة حتّى يزداد به قوّة على قوّة وصلابة على صلابة.

ولما قدم إبراهيم سمع جلبة عظيمة ودوياً خارقاً هو ما يحدثه صهيل الخيل وقعقعة اللجم لأنّ المختار قد اشتبك مع قائدين عسكريين هما شبث بن ربعي الآنف الذّكر وحجار بن أبجر وقد صمد لهم المختار كالطّود لا يتزعزع من مكانه شبراً واحداً ولا يتخاذل ولا يلين وجعل قبالتهم من رجاله الأبطال رجلين وهما يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وهذا الأخير قتل مع المختار في يومه الأخير فيمن قتل من أصحابه.

وهنا يبدو الانكسار في جيش العدو فهذا «حجار بن أبجر» ينسحب بجيشه عن خطة الميدان وهذا الآخر شبث بن ربعي يتراجع إلى الوراء ليفسح لقواد المختار الطّريق وليذهب من فوره إلى الأمير ليدبر خططاً أخرى وينقذ الموقف، وفي تلك الأثناء أقبل رجلان لمساعدة المختار ومع كلّ واحد فريق من الرّجال وهما:

1– قيس بن طهفة النهدي.

2– عبد الله بن الحر الجعفي.

وخرج بعدهم «بنو شاكر» من دورهم مستبسلين تضامناً مع شيعة المختار وكان داعيتهم أبو عثمان النهدي وتلا هؤلاء بعد ذلك عبد الله بن قتادة في جماعة زهاء مائتي رجل.

وهكذا اندلعت ألسنة الثّورة وأخذت تضم القبائل الواحدة تلو الأخرى حتّى بلغوا قرابة خمسة آلاف رجل، وخرجت قبيلة «شبام» وهم بطن من همدان وهي آخر من خرج من القبائل:

وبدا واضحاً لدى عبد الله بن مطيع أنّ الموقف دقيق ويجب إنقاذه فماذا سيحتاط لهذا الخطر الدّاهم؟ فقد حدثنا «الطّبري» إنّ ابن مطيع جمع إليه قواده في تلك السّاعة الحرجة وأصدر أمراً لمدير شرطته أن ينادي في الكوفة.

ألا برأت الذّمة من رجل لم يأت المسجد في هذه اللّيلة.

حتّى يستعمل آخر ما عنده من السّلاح لأنّ الخطر أضحى يتمثل أمام عينه.

ووجه حملاته على الصّورة التّالية:

أولاً: حملة بقيادة شبث بن ربعي في ثلاثة آلاف رجل.

ثانياً: حملة أخرى بقيادة راشد بن إياس وتكون هذه الحملة لصد هجمات جيش المختار وقال «ابن نما» عليه الرّحمة وزاد.

ثالثاً: حملة أخرى بقيادة حجار بن أبجر في ثلاثة آلاف رجل فيكون مجموع الجيش الّذي تاهب للحرب مرّة أخرى قرابة عشرين ألفاً وكلّه شاكي السّلاح بمعنى أربعة أضعاف جنود المختار.

كذلك المختار وجه حملاته على الصّورة التّالية:

1- أنفذ إبراهيم في تسعمائة من الفرسان ومثلها في ستمائة من الرّجال لقتال راشد بن إياس.

2 -نعيم بن هبيرة -أخا مصقلة بن هبيرة- إلى قتال شبث بن ربعي في ثلاثمائة فارس وستمائة رجل.

3- يزيد بن أنس في تسعمائة من الفرسان وخلفهم القوّة الرّئيسية مع القائد الجريء وهو المختار: وتشتبك المعركة من جديد.

ووجه نعيم جيشه نحو شبث وهجم بصورة مفاجئة وأوشك أن ينتصر ولكنّ كثرة جيوش غريمه مما أدى إلى تضعضع موقفه وخذلانه أما خصمه وعاد خصمه بعد هذا الهجوم المضاد إلى تطويق «المختار» ويزيد بن أنس وفطن يزيد بهذا التّطويق حيث فعل شبث بما يسمونه في الحروب الحديثة بـ «حركة التفاف» استطاع أن ينقذ الموقف بعد أن ردّ جنود شبث على أعقابهم مندحرين وبعد أن ألهب عزائم رجاله بقوله: «يا معشر الشّيعة إنّكم كنتم تقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف وتسمل أعينكم في حبّ أهل بيت نبيكم -(ﷺ)- فما ظنكم بهؤلاء إن ظهروا عليكم؟ فلا يدعون والله لكم عيناً تطرف ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم ما الموت خير منه والله لا ينجيكم منهم إلا الصّدق والصّبر والطّعن».

ولنعد الآن إلى «إبراهيم» فقد تركناه مع «راشد بن إياس» الّذي كان معه من الجند ما يقارب الأربعة آلاف ولكن هل تعلم كيف استطاع إبراهيم أن ينتصر بهذه المعركة ويربح الموقف؟!

إنّه قبل كلّ شيء أخذ يشجع أصحابه على الصّمود لهجمات العدو ويبث فيهم الثّقة والأمل بشجاعته ورباطة جأشه وهو يقول:

«لا يهولنكم كثرة هؤلاء... فربّ فئة قليلة غلبت فئة كثير بإذن الله».

واستعرت المعركة ودارت رحى الحرب في حين أنّ جهة العدو لم تتقدم خطوة واحدة ولكنّها ظلّت متشبثة بمراكزها الأصلية ولم يمض وقت طويل حتّى مشت الهزيمة في ركاب أنصار «ابن مطيع».

فقتل «راشد بن إياس» وولى أصحابه منهزمين.

وتلاحقت سلسلة من الانتصارات فاز بها كلّها إبراهيم.

1- انتصر على «حسان العبسي» وكان جيشه قرابة ألفين.

2- وانتصر على «يزيد بن الحارث» وقد عهد إليه في حراسة أفواه السّكك.

3- انتصر أيضاً على «شبث بن ربعي» وقد عين هذا خاصاً لصد هجمات جيش الأمير وجاء -بعد هذه الانتصارات السّابقة- هذا الشّجاع يسحق كلّ عقبة كأداء تعترض طريقه وبدأ.

4- بإبراهيم بن الحجاج فأباده وجنده، ومضى وطائر الظّفر يرفرف فوق رأسه فاعترضه أثناء الطّريق.

5- شمر بن ذي الجوشن ففرق جنوده حتّى اضطر إلى الفرار بمعاونة سعيد بن منقذ الهمداني.

أمّا المختار فقد كانت شجاعته ومواقفه مضرب المثل، فلم ينته من معركة حامية حتّى يقذف نفسه في لهوات أخرى ويخرج منها مرفوع الجبين، وكان قبيل هذه الانتصارات يحاول الكوفة ولكنّه جوبه من قبل الرّماة الّذين كانوا على أفواه السّكك فعدل عن هذه الخطة إلى خطة تضمن نجاحه وهي أن يدخل من بيوت مزينة وكانت بيوتهم متفرقة، وحين وصلهم المختار خفوا إليه يقدمون له الماء فشرب جيشه أمّا هو فلم يشرب لأنّه كان صائماً ذلك النّهار - وكانت عادته كلّما نوى على الحرب أمسك عن الطّعام والماء استمداداً للقوّة الرّوحية - وعلى كلّ حال فقد بدأت تباشير النّجاح تبدو واضحة في كلّ خطوة يخطوها هذا القائد الجريء ولم يبق لديه سوى أن يدخل الكوفة.

ودخل الكوفة وبمعيته إبراهيم وقد راح هذا الأخير يحرض أصحابه بهذه الحملة الفاصلة وقد أمرهم بالنّزول عن خيولهم:

«قربوا خيولكم بعضها من بعض ثمّ امشوا إليهم مصلتين بالسّيوف ولا يهولنكم أن يقال جاء آل فلان وآل فلان».

وأسفرت هذه الحملة الأخيرة -وقد دخلت الجيوش المحتلة أسواق الكوفة وشوارعها- أن حوصر قصر الإمارة، ومعناه النّصر النّهائي للأمير الجديد والاندحار النّهائي لعدوه.

وبعد فترة قصيرة كانت الكوفة تحت طاعة المختار وسلطته.

بعد الفتح

استولى المختار على الكوفة واحتل قصر الإمارة وقد وجد فيه من مخلفات الوالي شيئاً من النّقود فرغب أن يسدي إليه يداً فبعث إليه بكمية كبيرة من المال وقال: خذ هذا فقد بلغني إنّه لم يمنعك من الخروج سوى قلة ذات يدك، وكان ابن مطيع قد اختبأ في منزل أبي موسى الأشعري وأبو موسى غير خاف عداؤه الصّريح لآل البيت فلا غرابة إذا رأينا الوالي يلوذ في هذا البيت، ومهما يكن الأمر فقد استولى المختار على الكوفة وأصبح في اليوم التّالي يعلن سياسته ويخطب في المسجد فيقول:

«الحمد لله الّذي وعد وليه النّصر وعدوه الخسر وجعلها فيه إلى آخر الدّهر قضاء مقضياً ووعداً مأتياً، قد سمعنا دعوة الدّاعي، وقبلنا قول الواعي فكم من باغ وباغية قتل في الواعية ألا بعداً لمن طغى وجحد وبغى وأدبر وعصى وكذب وتولى، ألا فهلموا -عباد الله- إلى بيعة الهدى ومجاهدة الأعدا والذّب عن السّعدا من آل محمّد المصطفى».

ثمّ أضاف قائلاً:

«فلا والّذي جعل السّماء سقفاً مكفوفاً والأرض فجاجاً وسبلاً، ما بايعتم بعد علي بن أبي طالب أهدى منها».

وهذه الخطبة القصيرة تعرب لنا عن هدفه الّذي ضحى من أجله كلّ غال ورخيص وهو «مجاهدة الأعدا والذّب عن السّعدا من آل محمّد المصطفى».

كما تعرب عن مدى ثباته وعقيدته وتفسر لنا سياسته الّتي يسير عليها -أثناء الحكم- فهي بمجموعها صورة انعكست عليها نفسيته فيما ينويه من هذه الوثبة.

وبعد ذلك صلّى بالنّاس في المسجد ثمّ أقبل إلى القصر فأنهالت عليه جموع من النّاس يبايعونه على «كتاب الله وسنة رسوله والطّلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والذّب عن الضّعفاء» حتّى بايعه -كما يُروى- العرب والعجم على السّواء.

والظّاهر من التّاريخ إنّ الشّعب الكوفي وقف من هذه البيعة موقفاً إيجابياً فلم يبد أية معارضة بالرّغم من كثرة عناصره وأحزابه المختلفة وأذعن لهذه البيعة -سواء في ذلك العجم والعرب- بكلّ إكبار وإجلال وأغلب الظّن أنّ الحزب الأموي لم يرتض هذه البيعة في قرارة نفسه ولكنّه اندفع -على كلّ حال- بدافع الخوف والرّجاء، الخوف من الانتقام والفتك به من الزّعيم الجديد والرّجاء عما في يده من مال أو عطاء، ومن المؤكّد أنّ هذا الحزب ظلّ يتحين الفرص إلى الثّورة ضد هذه السّلطة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً حتّى استطاع أخيراً أن يقضي على هذه الحركة القضاء الأخير -كما سنرى- أمّا هؤلاء الّذين بايعوه ونرجح أن يكونوا الأغلبية السّاحقة فقد اندفعوا بدافع ولائهم لآل البيت آملين أن يظفروا بغايتهم القصوى وهي الطّلب بدم الحسين والقضاء على السّلطة الأموية الجائرة أو أنّهم اندفعوا لتخفيف الآثام الّتي اقترفوها في تقاعسهم عن نصرة حفيد نبيهم ومناصرته وعلى أية حال فقد بايعوا المختار مخلصين مؤملين في هذه البيعة النّصرة لآل البيت.

وحين تمت له البيعة كما توخى من جميع القبائل حتّى المجاورة إلى الكوفة قام بتنظيماته الإدارية وباشر بأعماله الخارجية، ففرق عماله على الثّغور والأمصار كلّ حسب كفاءته، فكانوا على البيان التّالي:

1- أرمينية: بعث إليها عبد الله بن الحارث أخ الأشتر وعقد له راية.

2- أذربيجان: بعث إليها رجلاً يقال له محمّد بن عمير بن عطارد.

3- الموصل: بعث إليها عبد الرّحمن بن سعيد بن قيس.

4- المدائن: بعث إليها سعيد بن حذيفة بن اليمان.

5- الرّي: بعث إليها يزيد بن نجبة الفزاري.

6- أصفهان وأعمالها: أرسل إليها يزيد بن معاوية البجلي.

7- بهقاذ الأعلى: بعث إليه قدامة بن أبي عيسى بن ربيعة النصري هو حليف ثقيف.

8- بهقاذ الأوسط: بعث إليه محمّد بن كعب بن قرظة.

9- بهقاذ الأسفل: بعث إليه حبيب بن منقذ الثّوري.

وخضعت له جميع الحاضرة الإسلامية سوى الحجاز والشّام ومصر والبصرة والجزيرة وهذا الإقليم الأخير صار تحت قبضته فيما بعد حينما استولى عليه إبراهيم بقتاله مع عبيد الله بن زياد وانتصاره عليه، ولما فرغ من توزيع عماله أخذ ينظم أعماله الدّاخلية فوضع على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري وعلى حرسه كيسان -أبا عمرة- مولى عرينة وأقر شريح القاضي على وظيفته في القضاء ولكنّه ما لبث أن عزله وأحلّ محله عبد الله بن مسعود وذلك حينما علم بأنّه عثماني العقيدة وهو الّذي شهد على حجر بن عدي الكندي بالقتل.

سياسته العامة

كانت السّياسة العامة الّتي جرى عليها المختار -أثناء حكمه في الكوفة- تعتمد غالباً على الشّدة والقسوة ولكنّها القسوة في حدود معينة، إذ لم يكن يميل بطبعه إلى هذا اللّون من السّياسة ولكنّ مركزه كثائر يحاول تطهير الكوفة من قتلة الحسين يحتم عليه قهراً أن يعتنق في سياسته هذه الشّدة، وهذا هو أحد الأسباب الّذي أثار حوله التّهم والشّكوك واستراب فيه النّاس، كما أنّه هناك بادرة أخرى في سياسته

وهي عدم التّحيز إلى عنصره وقومه بل كانت نظرته تشمل جميع طبقات النّاس حتّى يقال أنّه هو «أوّل من حاول مساواة الموالي بالعرب في الأعطيات الأمر الّذي أدى إلى تذمر العرب فشكوا أمرهم إليه ومما قالوه عمدت إلى موالينا وهو فيء افاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً لنا فاعتقنا رقابهم نامل الأجر في ذلك والثّواب والشّكر فلم تَرض بذلك حتّى جعلتهم شركاءنا في فيئنا»[1].

وسار هو على هذه الخطة غير مصغ إلى مقالة هؤلاء فساوى في الأعطيات وفي توزيع بيت المال فاثارت هذه السّياسة حوله مشكلة أدت بالنّتيجة إلى نشوب حرب أهلية.

وكان من سياسته وحسن تصرفه في الأمور أنّه دارى عبد الله بن الزّبير حتّى اعتقد «عبد الله» أنّه إنّما قام على حسابه خاصة وليس له في ثورته ناقة ولا جمل فكتب إليه:

«... أمّا بعد فقد عرفت مناصحتي إياك وجهدي على أهل عداوتك وما كنت أعطيتني إذا أنا فعلت ذلك من نفسك فلما وفيت لك وقضيت الّذي علي -خست بي- أي تأخرت ولم تف بما عاهدتني عليه ورأيت مني ما قد رأيت فإن ترد مراجعتي أراجعك وإن ترد مناصحتي أناصحك...».

ووثق «ابن الزّبير» بهذا الكتاب ولكنّه ظلّ يراقب خطواته عن كثب وأخيراً أراد أن يختبر صدقه فأرسل من قريش والياً على الكوفة في مكانه ولكنّ المختار أحس بذلك فأرسل إليه من يرده على عقبيه وقال: «اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه...»فخرجوا إليه وقالوا أين تريد؟! والله لئن دخلت الكوفة ليقتلنك المختار، وكتب المختار بعد ذلك إلى ابن الزّبير إنّ صاحبك جاءنا فلمّا قاربنا رجع فما أدري من الّذي رده؟! فغضب ابن الزّبير على القرشي ورده ثانية فقال المختار أيضاً «أخرجوا إلى هذا المغرور فردوه» وهكذا إلى مدى ثلاث مرات حتّى فطن ابن الزّبير أنّ المختار يكايده ويداريه، وحينما علم أبو إسحاق أنّه قد فطن[2] ابن الزّبير لما أراد وأنّه بات عدوه اللدود لم يعد بحاجة إلى مداراته كتب إليه كتاباً شديد اللهجة وقع في نفس عدوه وقوع الصّاعقة[3].

«من المختار بن أبي عبيد الثّقفي خليفة الوصي محمّد بن علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء ثمّ ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه»[4].

وكان من سياسته أيضاً أنّه لم يقطع صلته مع «محمّد بن الحنفية» صفيه القديم وأستاذه الّذي تلمذ على يده بل كان دائم الأوقات يحمل إليه الهدايا ويصله برسائل وكتب كما وصل بذلك الإمام السّجاد «زين العابدين».

ومن ذلك ما كتبه إليه يستحثه على الثّورة وعلى استيلاء المدينة.. «فإنّ رأيت أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلي جيشاً كثيفاً وتبعث إليهم من قبلك رسلاً حتّى يعلم أهل المدينة إنّي في طاعتك وإنما بعثت الجند إليهم عن أمرك فافعل فإنك ستجد عظمهم بحقكم أعرف وبكم -أهل البيت- أرأف منهم بآل الزّبير الظلمة الملحدين والسّلام عليك»[5].

ولكن ابن الحنفية أبى أن يستجيب لهذه الدّعوة ورد عليه:

«.. أمّا بعد فإنّ كتابك لما بلغني قرأته وفهمت تعظيمك لحقي وما تنوي به من سروري وأنّ أحب الأمور كلّها ما أطيع الله فيه فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت وأعلم أنّي لو أردت القتل لوجدت النّاس إلي سراعاً والأعوان لي كثيراً ولكني اعتزلهم وأصبر، حتّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين..».

وكان يسير على هذه السّياسة الّتي كان ملاكها توطيد ملكه وتحقيق هدفه الّذي ثار من أجله -وهو الطّلب بدم الحسين- وبهذا كسب ثقة محمّد بن الحنفية فيه وكان لا يفتأ يذكر آل البيت مما يدل دلالة واضحة أنّه كان يؤمن بهم إيماناً راسخاً وليس أدل على ذلك من إنقاذه ابن الحنفية من «سجن عارم» حينما سجنه عبد الله بن الزّبير لإرغامه على البيعة، فقد استطاع المختار أن ينقذه، وسبعة عشر نفراً من شيعته في بعثة عسكرية أنفذها لهذا الغرض، واستطاعت هذه البعثة أن

---

(1) تاريخ البرامكة ص.

(2) وروى «الطبري» في هذا المقام قال.

وأراد ابن الزّبير أن يعلم أسلم هو أم حرب؟ فدعا «عمر بن عبد الرّحمن بن هشام المخزومي» فقال له تجهز إلى الكوفة فقد ولياكها، فقال: كيف وبها المختار؟ قال: إنّه يزعم أنّه سامع مطيع، فتجهز بما بين الثّلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفاً ثمّ خرج مقبلاً إلى الكوفة، وجاء عين المختار من مكّة فأخبره الخبر فقال له: بكم تجهز؟ قال بما بين الثّلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً فدعا المختار «زائدة بن قدامة» وقال احمل معك سبعين ألف درهم ضعف ما أنفق هذا في مسيره وتلقه في المفاوز واخرج معك مسافر بن سعيد الناعطي في خمسمائة فارس دارع رامح عليهم البيض ثمّ قل له خذ هذه النّفقة فإنّها ضعف نفقتك فإنّه قد بلغنا أنّك تجهزت وتكلفت قدر ذلك فكرهنا أن تغرم فخذها وانصرف فإن فعل فأره الخيل وقل له: إنّ وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة فأخذ زائدة المال واخرج معه الخيل وتلقاه بالمفارز وعرض عليه المال وأمره بالانصراف فقال له إنّ أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة ولابدّ من إنفاذ أمره، فدعا زائدة الخيل وقد أكمنها في جانب فلما رآها قد أقبلت قال: هذا الآن اعذر لي وأجمل بي هات المال: فقال له زائدة، أمّا أنّه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه فدفعه إليه فأخذه ثمّ مضى راجعاً نحو البصرة.

(3) جمهرة رسائل العرب: /.

(4) الكامل للمبرد: /.

(5) الطّبري: /.

تخلصه من براثن الموت، وهذا العمل أقل ما يستشف منه، ولاؤه الشّديد لآل البيت وحنكته ودهاؤه السّياسي.

أمّا إذا ألقينا نظرة على مركزه الدّاخلي ومكانته بين أهل الكوفة وذلك بعد السّلطة والاستيلاء، نجده قد هيمن على النّاس هيمنة كبيرة ومرد هذه الهيمنة -في الحقيقة- يرجع إلى قوة شخصيته ودهائه السّياسي ونبل غايته ولقد اتسعت هيمنته وتضخمت حتّى أصبح يتمتع بشخصية قدسية مهابة، فلا نغالي إذا قلنا من أنّ النّاس -وخصوصاً السّواد منهم- أخذوا ينظرونه بعين الإكبار والتّقدير نظرتهم إلى إنسان مثالي مقدس، حيث أنّ من الصّدف الحسنة الّتي استغلها المختار أنّه كان يمتلك غلاماً يدعى جبرائيل -كما يحدثنا المرزباني في كتاب الشّعراء- فكان يقول عنه جاءني جبرائيل وأخبرني جبرائيل وما إلى ذلك من العبارات حتّى توهم السّواد من النّاس أنّه المقصود به «الأمين» وأنّ المختار نبي مرسل.

ومن هنا تقوّل عليه التّاريخ بدعوى النّبوة ونزول الوحي عليه ونحن لا ننكر هذه الدعوى ولا نثبتها ولكننا لا نجد فيها -لو صحت- بأساً أو غضاضة لأنّه -بلا شك- قد استخدم -هذه الفكرة- لأجل تركيز نهضته كما استخدمت الحكومات القديمة أو السّلاطين على الأصح -نظرية التّفويض الإلهي- في حكم شعوبهم وإرغامهم على الطّاعة والخضوع حتّى أنّهم كانوا يعبدون على أنّهم آلهة أو أنّهم ظل الآلهة في الأرض وأنّهم هم الواسطة بين البشر وبين الله وبمرور السّنين وتقدم البشرية أصبح البشر يزهد ويسخر من هذه النّظرية حتّى تلاشت في الوقت الحاضر وكان الغرض من ذلك أن يحكموا أمداً طويلاً من دون معارضة ويأمنوا من كلّ ثورة تقام ضدهم، وتمشياً على هذه القاعدة -ادعى المختار النّبوة على قول بعض المؤرخين- حتّى يضفي على نفسه صفة القدسية بحيث لا يستطيع أحد من المعارضين أن يثير السّواد والغوغاء ضده، ونحن واثقون من أنّه لم يرد في ذلك أن يوهم على ابن الزّبير وأمثاله من المحنكين من أنّه نبي ولم يوهم كذلك على نفسه بهذه الدّعوى وإنما هي مجرد فذلكة سياسية كان الغرض منها السّياسة فقط -والسّياسة مكر وخداع- ويمكننا أن نعيب عليه لو أتانا بدين جديد أو ابتدع مذهباً آخر في العقيدة في حين أنّ هذا لم يذكره التّاريخ مطلقاً مع العلم بأنّ التّاريخ لا يشك في كونه مسلماً من إتباع النّبي(ﷺ) وآل البيت.

ولا حاجة بنا بعد هذا البيان أن نجد بأساً في إلصاق دعوى النّبوة به وسواء ادعاها هو لنفسه أو ادعاها له «أبو عمرة» صاحبه -كما يقول النّوبختي في فرق الشّيعة- من أنّ أبا عمرة هو الّذي ادعى أنّ جبرائيل كان يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره ولا يراه.

ومـوجز القـول فـإنّ دعـوى النّبـوة -إن صـحت- قـد استخدمها سياسياً لا دينياً ولتركيز نفسه ليضمن بها البقاء طويلاً حتّى يتم له ما يريد من الأخذ بالثّار.

فشل المعارضين

وعلى رغم ما بذله المختار من سياسة وحنكة ودهاء فقد كان الحزب الأموي يعارض سياسته بكلّ قواه ويتحين الفرص لتطويح سلطانه وأخذ يشيع الأراجيف حوله ويتهمه في نهضته من أنّها لم تحمل رأي -محمّد بن الحنفية- ولا رضا أهل البيت وإنما كان المختار يجر النّاس إلى قرصه بدافع حب السّلطة والاستيلاء وسببت هذه الدّعاية نشوب حرب داخلية، وسبب آخر ساعد الثّوار على ثورتهم هو -ما تقدمت الإشارة إليه- من مساواة المختار للعرب والموالي، وقد رأى العرب هذا العمل تحدياً لكرامتهم وامتهاناً لحقوقهم فلذا وقعت الثّورة الدّاخلية، ونحن نورد بهذا المقام كيف تمكن الثّائرون على إعلان الثّورة وكيف باءت بالفشل أخيراً؟!

كان ابن زياد -الّذي سبق القول عنه- قد عهد إليه قتال أهل الجزيرة ومن ثمّ يعود لإخضاع العراق أمّا في الجزيرة فقد نجح نجاحاً ملحوظاً وخاصة في حربه مع التّوابين غير أنّه لم ينجح في إخضاع زفر الكلابي داعية ابن الزّبير في حين ظل يماطله ما يقرب من عام واحد غير أنّه آب منه ومن قبيلته قيس غيلان -وهي بطن من ثقيف- بالخيبة والفشل ثمّ عاد بعد هذا الفشل فنزل الموصل.

ومنذ تلك اللحظة الّتي علم بها أبو إسحاق بقدوم عبيد الله عدوه الألد قرر أن يبدأه بالقتال، فأنفذ يزيد بن أنس في ثلاثة آلاف فارس لمحاربته ثمّ أوصاه بعدة وصايا -كعادته- وودعه وانصرف يزيد، ويسير هذا القائد حتّى انتهى إلى الموصل، كيما يظفر بخصمه، غير أنّ ابن زياد وقد بلغه قدوم يزيد لمحاربته، رأى أنّه وجد ضالته وأتاه القوس من غير ثمن وسيجتاحه وجنده في بضعة حملات يشنها عليه كيما يظفر بالعراق الّذي مناه به عبد الملك وأبوه مروان من قبل، فقال سأبعث إليه بدل كلّ ألف ألفين، وفعلاً أنفذ إليه ستة آلاف مقاتل ثلاثة آلاف بقيادة ربيعة الغنوي وثلاثة أخرى بقيادة عبد الله الخثعمي، ولكن ربيعة كان قد سبق صاحبه والتقى بيزيد، وهنا وقع لسوء الحظ أنّ يزيداً قائد الجيش قد مرض مرضاً شديداً غير أنّه راح يحث أصحابه على الصّبر والثّبات في مواجهة الأعداء.

وفي عام 66هـ شبت نيران المعركة وانتهت بانتصار يزيد وقتل ربيعة وهلاك عبد الله ولكنه كان نصراً مؤقتاً لأنّ المعركة

لم تنته إلى نتيجة حاسمة حيث توفي يزيد ودفن في مقره الأخير بعد أن عهد بالقيادة إلى ورقاء بن عازب الأسدي فآثر ورقاء خليفة يزيد أن ينسحب عن هذه الخطة الّتي لا يأمن نجاحها إلى خطة أضمن إلى النّجاح وعليه يرجع الآن بأصحابه من غير ما هزيمة لاسيّما وأنّ الإمدادات الكثيرة العدد والعدة والّتي توجهت من القيادة العليا لا يقوى على الوقوف في وجهها، وفعلاً قفل راجعاً بجنوده إلى الكوفة.

وكان المختار يترقب أخبار قائده يزيد إذ فوجئ بنبأ مريع وهو قتل قائده يزيد وتفرق جنوده وخسارته بهذه المعركة ولم يصدق النّاس أنّه مات حتف أنفه ولكن المختار عمد فوراً فاتصل بعامله على المدائن ليكشف له جلية الحال وكان من عامله أن أجابه بموت قائده وأنّ جيشه في الطّريق لم يتكبد أضراراً جسيمة، فقرر المختار عند ذلك أن يبعث قائده الكفء إبراهيم بن الأشتر وليقوم هذا في قيادة الجيش بدلاً من ورقاء ويضم إليه عدداً آخر من الجيش فيتألف من الجيشين وحدة كبيرة تكون جبهة قوية لمقاتلة الأعداء.

وسافر إبراهيم من الكوفة لهذا الغرض ولم يكد يقطع بضع مراحل حتّى اتخذ الحزب المعارض سفره وسيلة لإعلان الثّورة ومعارضة الحكم الحالي فأرسلوا فوراً شبث بن ربعي بعد مؤامرات وخطط رسموها في ندوتهم وحينما جاء شبث ثارت ثائرته واحتدم غضبه ولم يكتم الأمير شيئاً أنكره أهل الكوفة إلا وأبداه بيد أنّ المختار اللبق عرف مغزى ما جاء به شبث وما يهدف من ثورته فمناه بكلّ ما يطلب ولكن بشرط وطيد هو أن يقاتل «هؤلاء النّاقمون عليه» بني أمية وابن الزّبير.

أمّا شبث فمنذ أن رجع راح يحرض رجالات الكوفة سراً وجهراً للانضمام إلى عصابته ويقرر الثّورة، وفي دقائق حشدت الجبابين وأفواه السّكك ولم يبق أحد من شيعة بني أمية وأتباع ابن الزّبير إلا وأعلن عصيانه وتمرده على السّلطة، فماذا عمل أبو إسحاق وماذا يجب أن يعمل تفادياً للموقف؟ ولكن المختار -وقد عرف بأصالة الرّأي في الشّؤون السّياسية وبأنّه أقدر الأمراء خبرة وتجربة في أمثال هذه الحوادث الخطيرة- عمد إلى إرسال رسول فوراً لحضور إبراهيم وقد وصل المدائن في طريقه إلى قتال ابن زياد ولم يكد يصل إبراهيم الخبر حتّى سحب جيشه وأقبل تواً إلى الكوفة ووصلها عند العصر.

وحين وصل إبراهيم الكوفة كان صاعقة نزلت بهم فساد فيهم الرّعب وتولاهم الخوف ولكنهم صمدوا مع ذلك إلى معركة حامية ردها إبراهيم مدحورة محطمة.

ومن ذلك اليوم علا شأن المختار وتمهدت له الأمور وانبسط نفوذه فلقد قضى على الشّغب الدّاخلي وسلم من عدوه الرّابض في عاصمته وقد باء ذلك الحزب بالخيبة والخذلان حيث خسر أغلب زعمائه وأهم رجالاته، فلقد تمكن من الانتقام -عقب هذه الثّورة- بإعدام مائتين وثمانية وأربعين رجلاً وكان هؤلاء من قتلة الحسين.

حوادث الانتقام

كان لفشل الحزب المعارض أثره الكبير في تذليل كلّ عقبة تعوقه عن الوصول إلى غايته في الأخذ بالثّأر، فقد راح من ثمّ يبعث جنده على كلّ رجل اشترك في الدّم المسفوح بأرض كربلاء ثمّ يذيقه ألوان النّكال والتّعذيب كذلك أخذ يبث العيون والرّصد خارج الكوفة وفي الصّحراء على الهاربين لإلقاء القبض عليهم حتّى استطاع أن يقتل ثمانية عشر ألفاً وهو عدد جد كبير إذا قسناه إلى مدة سلطنته وهي ثمانية عشر شهراً.

أجل لقد قام المختار بدوره في هذا المضمار وقد بذل أقصى ما في وسعه من تتبع هذه العصابة المارقة وهو يقول: «لا يسوغ لي الطّعام والشّراب حتّى أطهر الأرض منهم».

أو يقول: «ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين».

أو يخاطب عبد الله بن كامل وكان هذا من أخص بطانته وقد استجار عنده «قيس بن الأشعث»، أتستحل أن تجير قتلة ابن بنت نبيك؟

إلى أمثال هذه الكلمات الّتي إن دلت على شيء فإنما تدل على حبه وولائه لآل البيت، وإذا صح ما يروى[1] من قرابته من عمر بن سعد وقد قتله فهذا من أكبر الدّلائل على إيمانه وعقيدته الثّابتة.

وقد أتيح له من الأبطال المناجيد بحيث مكنه من الوصول إلى غايته المتوخاة، وأهم هؤلاء اثنان -سبقت الإشارة إليهما- وهما:

1- كيسان أبو عمرة وقد جعله على حرسه، وقيل على شرطه.

2- عبد الله بن كامل وقد وضعه على شرطه، وقيل على حرسه.

والآن أيسمح القارئ أن أعرض عليه بعض صور الحوادث ليستخلص منها مدى عقيدة هذا الرّجل وثباته «قتل الّذين رضوا جسد الحسين».

وهم عشرة نفر، جيء بهؤلاء مصفدين فأمر أن يطرحوهم أرضاً ففعلوا ثمّ أمر أن تضرب سكك الحديد بأيديهم وأرجلهم ففعلوا بهم أيضاً ثمّ أوعز للخيل أن تجري على أجسادهم ولم

(1) راجع المعارف ص قال قتل المختار عمر بن سعد وولده حفصاً أو هو ابن أخت المختار.

يتركوا على هذا الحال دون أن رميت أشلاؤهم في النّار كما صنعوا بمثل هذا تماماً في الحسين(عليه السلام) ثمّ قام بعد ذلك في: «قتل عمرو بن الحجاج الّذي كان موكلاً على المشرعة».

اختلف المؤرخون في مقتل «عمرو» فبعضهم يرى أنّه ركب راحلته وأخذ طريق واقصة وضاع خبره حتّى كتابة هذه السّطور وبعضهم يرى أنّ الطّلب أدركه -وكان منبثاً بأطراف الكوفة- أثناء الطّريق فذبح وجيء برأسه.

وقيل هرب إلى البصرة وفي الطّريق هلك ومن معه عطشاً وعجل الله بأرواحهم إلى النّار، ثمّ: «قتل حكيم بن الطّفيل».

وحكيم كانت جريمته الّتي استحق بها العقوبة هي:

1- سلب العبّاس بن علي ثيابه في مأساة كربلاء.

2- رمي الحسين بن علي بسهم تعلق بثوبه ولم يصب جسده الشّريف، وحين وقع بأيدي الشّيعة جوبه بهذا الخطاب.

الشّيعة: إنّك سلبت ابن علي ثيابه والله لنسلبنك وآنت حي تنظر بعينيك، وخلعوا عنه ثيابه.

الشّيعة: لقد رميت الحسين واتخذته غرضاً لنبلك والله لنرمينك كما رميته ما تعلق منها أجزاك.

وفوقوا قسيهم وسهامهم واتخذوه غرضاً حتّى صار جسده كالقنفذ وخر ميتاً.. ثمّ بعد هذا: «قتل مالك بن النّسر ورجلين معه».

والرّجلان هما:

1- عبد الله بن أسد الجهني، 2-.... بن مالك المجازي

وحين جيء بهم مخفورين دار بينهم الحديث التالي:

المختار: يا أعداء الله وأعداء رسوله أين الحسين بن علي أدوا إلي الحسين قتلتم من أمرتم بالصّلاة عليه في الصّلاة.

الأعداء: بعثنا أيّها الأمير ونحن كارهون فامنن علينا واستبقنا!!

المختار: فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه؟

ثمّ توجه إلى مالك بن النّسر، وقال أنت صاحب برنس[1] الحسين فسبقه أحد الشّيعة وقال نعم هو هو:

فأمر المختار عند ذلك أن تقطع يداه ورجلاه فقطعتا والدّم ينزف منه حتّى هلك، وألحق الرّجلين به فهلكا.

وبعد أن فرغ زعيمنا من هؤلاء وجه جهوده إلى: «قتل شمر بن ذي الجوشن».

وشمر كان أبرص كريه المنظر يدعي المذهب الخارجي لجعله حجة يحارب بها علياً وأبناءه، وقد وصفه لنا الأستاذ بولس سلامة فقال:

أبرصاً كان ثعلبي الصّفات
أصفر الوجه أحمر الشّعرات
ناتئ الصّدغ أعقف الأنف
مسود الثّنايا مشوه القسمات
صيغ من جبهة القرود وألوان
الحرابي وأعين الحيّات
منتن الرّيح لو تنفس في الأسحار
عاد الصّباح في الظّلمات
ذلك المسخ لو تصدى لمرآة
لشاهت صحيفة المرآة
لم يحرك يداً لإتيان خير
فإذا همّ همّ بالسّيئات

هذه هي صورته كما وصفها لنا هذا الشّاعر العربي فلنتأمل إذاً إلى ما جاء في اختلاف المؤرخين في مقتل هذا الوغد الأثيم.

بعضهم يرى أنّه فر إلى البادية وقد أدركه الطّلب أثناء الطّريق فقتل هو ومن معه وجيء برؤوسهم إلى الأمير.

وبعضهم يرى كما في البحار أنّه هرب إلى البادية فصادفه «أبو عمرة» أثناء الطّريق ودارت بينهما معركة أسفرت عن جرح شمر بجروح بليغة وقيد بعدها إلى الأمير.. ثمّ قتل، فقام بعد ذلك مولى لآل حارثة بن المضرب فوطئ وجهه.

وقيل: أنّه هرب إلى البصرة ونزل قرية تدعى «الكلسانية» على شاطئ الفرات فقتله «أبو عمرة» مع طائفة كبيرة من شيعته وبعث برؤوسهم إلى الأمير، ومهما يكن من اختلاف هذه الرّوايات فمن المؤكد بأنّ شمراً قضى عليه المختار وبعد ذلك: «قتل حرملة بن كاهل».

وحينما قبض على حرملة قال المختار «الحمد لله الّذي أمكنني منك»، ثمّ قال الجزار الجزار.. فأتي له بجزار فأمر أن تقطع أعضاؤه عضواً عضواً.. ثمّ قال النّار النّار.. فأتي له بنار وقصب فأمر بإحراقه، وفي هنيهة صار حرملة رماداً تذروه الرّياح.

وهنا يروي المؤرخون أنّ رجلاً كان بصحبته يدعى «المنهال بن عمرو» -وقد شاهد مقتل حرملة- فقال سبحان الله

(1) البرنس: قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام.

وكررها مرتين، فقال له المختار.. وقد لفته هذا التّسبيح «.. يا منهال أنّ التّسبيح لحسن لم سبحت»؟

فأخبره أنّه سمع الإمام علي بن الحسين -حين خروجه من مكة وقد علم الإمام بحياة حرملة فرفع يديه إلى السّماء- وهو يقول: اللهمّ أذقه حر الحديد اللهمّ أذقه حر النّار.

ولما سمع المختار بهذه المقالة، نزل عن دابته وسجد لله شكراً نظراً لاستجابة دعاء الإمام على يديه.

وحين أراح الله العباد والبلاد من شر حرملة «قتل الّذين نهبوا الورس من رحل الحسين».

وهم كما جاءت أرقامهم في التّاريخ:

1- زياد بن مالك الضّبعي.

2- عمر بن خالد العنزي.

3- عبد الرّحمن البجلي.

4- عبد الله بن قيس الخولاني.

وسيق هؤلاء النّفر إليه قال:

المختار: يا قتلة الحسين سيد شباب أهل الجنة وقتلة الصّالحين أنّ الله قد أقاد منكم اليوم.. لقد جاءكم الورس بيوم نحس، وسيقوا بعد هذا الخطاب كما تساق الغنم إلى جزارها وضربت أعناقهم علناً، وحين بلغ بأعدائه هذا الشّوط عزم على: «قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص».

وكان عمر قد أخذ الأمان[1] لنفسه بواسطة «جعدة بن هبيرة بن أخت أمير المؤمنين» أخذ الأمان من المختار ليسلم على دمه، غير أنّ المختار لم يستقر دون أن قرر أن ينفذ فيه الإعدام فراح يسجع فيه ويقول: «لأقتلن رجلاً عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يهز الأرض برجليه يسر قتله المؤمنين والملائكة المقربين».

وفي الصّباح أرسل على أبي عمرة وأسر إليه أن يقتله ويأتيه برأسه.. وراح أبو عمرة حتّى انتهى إلى منزله فقال أجب الأمير وقبيل أن يستوي على الأرض سبقه سيف أبي عمرة فأطاح رأسه وجاء به إليه.

فالتفت -وقد ألقي الرّأس بين يديه- إلى حفص ولد عمر، وكان قد ورد عليه ليجدد له الأمان قائلاً: أتعرف هذا الرّأس؟ فبهت الصّبي لهذه المفاجئة وقال ولا خير في العيش بعده!! فقال صدقت فإنّك لا تعيش بعده، وألحقه بأبيه.

فرأى النّاس هذا المشهد المثير.. والمختار يسألهم وقد ران عليه الحزن والأسى، أهذا بالحسين؟ وهذا بعلي بن الحسين، ولا سواء وأقسم بالله إنّه لو قتل ثلاثة أرباع قريش ما وفوا عنده بأنملة واحدة[2].

وهكذا أخذ المختار يقتل كلّ واحد على غرار فعلته الشّنعاء في مأساة كربلاء.

قتل عمرو بن الصبيح، وكان هذا يقول طعنت في أصحاب الحسين وجرحت كثيراً، قالوا أمر المختار بإحضار رماح كثيرة فأتي بها إليه فأمر أن يطعن مرة واحدة فطعنوه حتّى هلك.

و... قتل زيد بن رقاد، وكان هذا قد رمى عبد الله بن مسلم بسهم فسمر يده إلى جبهته، ثمّ أعقبه بسهم آخر قضى عليه.

قال المؤرخون فوثب إليه جماعة وقد أثبت كفه في جبهته فرشقوه بنبالهم مرة واحدة فخر من وقته ميتاً.

و... قتل بجدل بن سليم، وكان هذا قد قطع إصبع الحسين بقطعة سيف خلفتها المعركة وأخذ الخاتم من يده.

قالوا: أمر المختار بقطع يديه ورجليه وجعل يضطرب والدّم ينزف منه تدريجياً حتّى هلك.

و... قتل سنان بن أنس، وكان هذا قد لعب دوراً خطيراً في معركة كربلاء وكان قد طعن الحسين في خاصرته.

قالوا: أمر المختار أن تقطع أنامله ويداه ورجلاه وأغلى له زيتاً في وعاء وجعل يرمي أوصاله فيه.

وظلّ يقتل وينتقم من هؤلاء وغيرهم ويذيقهم ألوان النكال والتّعذيب حتّى أفلت منه جماعة والتحقوا بمصعب وكان من جملة من فر يومذاك شبث بن ربعي، ويحدثنا المؤرخون في هذا الصّدد أنّ العبيد الّذين اعتقوا من قبل مواليهم قد لعبوا

(1) ووثيقة الأمان كما وردت في التّاريخ هي: «بسم الله الرّحمن الرّحيم: هذا أمان المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد بن أبي وقاص إنّك آمن بأمان الله على نفسك وأهلك ومالك وولدك لا تؤاخذ بحدث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت منزلك إلا أن تحدث حدثاً فمن لقي عمراً من شرطة الله وشيعة آل محمّد فلا يتعرض له إلا بسبيل خير..» ويفسر لنا الطّبري وأكثر المؤرخين عند التّعرض لهذه الحادثة معنى هذا الحدث الّذي أخذه المختار شرطاً وثيقاً وأقر به عمر راضياً عن الإمام «أبي جعفر محمّد بن علي الباقر(عليه السلام)» قال: «إنما أراد المختار بقوله أن لا يحدث حدثاً هو أن لا يدخل بيت الخلاء ولا مراء -عندنا - بصحة هذا القول إن قصد به «التّورية» الّتي تطلق على معنيين قريب وبعيد وأراد به البعيد في نفسه ليظفر بعدوه فيقتله».

(2) جاء في تاريخ الطبري صلى الله عليه وآله/صلى الله عليه وآله أنّه بعث بهذين الراسين إلى محمّد بن الحنفية وكتب إليه بالكتاب التّالي:

«... أمّا بعد فإنّ الله بعثني نقمة على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد، فالحمد لله الّذي قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته رحمة الله عليهم كلّ من قدرنا عليه وليس يعجز الله من بقي ولست بمنجم «أي مقلع» عنهم حتّى لا أبقى على أديم الأرض إدمياً «أي أحد» فاكتب إلي برأيك اتبعه وأكون عليه والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته...».

دوراً خطيراً في ذلك العهد، وكان العبد يأتي إلى مولاه فيقول له احملني على عنقك فيحمله هذا ويدلي برجليه على صدره تحقيراً له وامتهاناً فيه.

ولم يكتف المختار بهذا العدد من قتلة الحسين فقد ظلّت في قلبه جذوة تتقد وتتأجج ولم تبرد حتّى استراح من أعدى خصومه وفتك بعبيد الله بن زياد، فقد حدثنا التّاريخ أنّه أرسل إبراهيم في رأس حملة قوية إلى قتال ابن زياد فكانت مذبحة عظيمة تدعى «وقعة الخازر» وينتصر إبراهيم على خصمه ويقتله وجماعة كبيرة من أصحابه.

وما شفى غليله حتّى هدم بيوتاً كثيرة هرب منها أصحابها مخافة القتل:

هدم:

1- دار محمّد بن الأشعث وبنيت بأنقاضها دار حجر بن عدي الكندي.

وهدم:

2- دار عبد الله بن عروة الخثعمي، وكان هذا قد رمى الحسين باثني عشر سهماً.

وهدم:

3- دار عبد الله بن عقبة الغنوي وكان هذا قاتل أبي بكر بن أمير المؤمنين.

وهدم:

4- دار أسماء بن خارجة، وقد سعى هذا في قتل مسلم بن عقيل.

وإلى هنا نجتزئ بهذه النّماذج القليلة الّتي رسمناها بهذه الصّفحات ونحن نحيل القارئ إذا شاء إلى كتب التّاريخ فسيلفيها مثبتة بصورة مفصلة ونحسبه بأنّه قد كون لنفسه فكرة عامّة عن تتبع هذا الزّعيم وراء كلّ رجل اشترك في دم الحسين ثمّ ينكل فيه أفظع تنكيل، كما وقد عرف عمق ولائه وعقيدته تتجليان بكلّ حادث من هذه الحوادث.

ولابدّ لي هنا أن أتساءل قبل أن أختم هذا البحث لتتم لي خطوط هذا الموضوع كما أريده وأتطلبه ويريده ويتطلبه القراء الكرام.

ترى هل للمختار أعذار ومبررات، تسوغ له قتل هؤلاء الجماعة وغيرهم الّذين قدرهم التّاريخ -وما أحسبه أسرف- بثمانية عشر ألفاً؟!!

قد يبدو لأوّل نظرة إنّه قد أخطأ خطأ لا يغتفر إذا لاحظنا الموضوع من زاوية ضيقة وهي ناحية القتل فقط، لأنّ القتل - في حد ذاته- جريمة بشعة، ولذا عيب على رجال عرفوا بالتّاريخ بسفك الدّماء كالحجاج بن يوسف وأضرابه، أمّا إذا لاحظنا الموضوع من دائرة أوسع حيث ندرك أهمية موقفه ونهضته نراه بعمله هذا أنّه لم يتعد الشّرع ولا العرف ونجزم بأنّه أحسن بكلّ ما قام به من تلكم الحوادث، وتتلخص تلك المبررات فيما أرى إلى:

1- القصاص من ناحية دينية، والقصاص ثابت عند الشّرع والعرف ويكفي للتدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ﴾ وقام هو بهذا العمل الحسن ليقتص من تلكم العصابة المارقة، وقد يبدو هنا تساؤل حيث لم يكن هو ولي الدّم ولا الوارث الشّرعي للحسين حتّى يلقي الأخذ بالثّار على عاتقه، ولكنّنا نستطيع أن نجيب على هذا التّساؤل في:

2- أخذه للإجازة من آل البيت وقد سبق أن عرفنا أنّه لم يثار حتّى وطد نهضته واعتمد على موافقة علي بن الحسين(عليه السلام) ومحمّد بن الحنفية وأنّه أجيز من قبلهما، يضاف إلى هذا كلّه أن:

3- الأخذ بالثّار عادة عربية مألوفة في ذلك الحين ولا تزال آثار هذه العادة العربية المتأصلة بادية في نفوس العرب حتّى الآن هذا إلى أنّ:

4- التّنكيل بالمجرمين السّياسيين متتبع -في الوقت الحاضر- في السّياسة الدّولية العامة، وتتجلى هذه الظّاهرة في محاكمة مجرمي الحرب بعد انتصار أحد المتخاصمين على الآخر فيؤدي ذلك إلى إعدامهم أو سجنهم وما إلى ذلك، ونضيف إلى هذا كلّه أخيراً:

5- أنّ الحكم الإسلامي كما ينطق به القرآن الكريم في إبداء رأيه في المجرمين قوله تعالى **﴿إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾**[1].

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأنّ المختار قد قام بقتل هؤلاء وهو محق بذلك حيث أنّه قد قتل فئة هي في أحط درجة من الفساد والإجرام تلك الفئة الّتي اجترأت على قتل «ابن بنت رسول الله» في موقعة كربلاء، وإنّ هذه الفاجعة هم الّذين أثاروها للقضاء على بيت النّبوة وهي من بعض ما ينسب إليهم من إجرام.

---

(1) سورة المائدة آية 33.

وهكذا أحسن المختار صنعاً -للمجتمع الإسلامي- في قيامه بهذه الحملة ضد قتلة الحسين الّذين لو ظلّوا في المجتمع لكان يخشى من شرّ دسائسهم ومكرهم ولكانوا وبالاً عليه لأنّهم يعيثون فيه فساداً.

المأساة

كانت أنباء -حوادث الانتقام -تصل مصعب بن الزّبير وهو في البصرة إذ ذاك والياً من قبل أخيه «عبد الله» مكبرة مهولة، وصادف أنّ عدداً غير قليل من رجالات الكوفة الّذين فروا إلى البصرة بما فيهم ذلك الحزب المعارض راحوا يؤلّبون مصعباً ويحرضونه على الثّورة، غير أنّ مصعباً كان يماطلهم ريثما تجتمع لديه من القوة ما تمكنه من نجاح حملته في حين كان المختار يعمل جاهداً في تطهير الكوفة ممن تبقى من قتلة الحسين، في حملته المعروفة الّتي نذر نفسه لها حتّى لا يبقي على أديم الأرض أحداً على حد قوله، كما وأنّ نجاحه في «وقعة الخازر» وزيادة نفوذه زاده قوة على قوة ونجاحاً على نجاح بحيث أصبح مصعب يرنو إليه في قلق وقر رأيه أن يبدأه بالقتال.

يضاف إلى هذا أنّ أخاه عبد الله لم يترك له فرصة للتفكير في أمر عدوه بل راح يلح عليه في إصرار أن يعجل في أمره قبيل أن يسد عليه خصمه منافذ النّجاة فلا يستطيع الهرب من وجهه.

هذه بعض أسباب المأساة.

وربما كان لانفصال إبراهيم بن الأشتر واستقلاله بالجزيرة -وهو العضو المهم في تعزيز جانب الدّعوة- سبب مباشر من أسباب وقوع هذه الكارثة.

ونضيف -نحن- إلى هذه النّذر الّتي حاقت بالمختار نذيراً آخر قد يكون له أثره الكبير في انهيار ملكه وتطويح سلطانه وبالتّالي في القضاء عليه، وهو:

إنّ كلّ ثورة تسعى للوصول إلى هدف معين بالقوّة والبطش يكون -حتماً- مصيرها السّقوط والانهيار، وذلك عندما تنتهي مهتمها أو قبل انتهائها، فهي حينما تبدأ -وطابعها الدّم والحديد -تحاط بأعداء وخصوم يظلون يعملون بحزم شديد للتطويح بها تحت الخفاء والتّستر، ويكثر هؤلاء الخصوم ويلتف النّاس حولهم كلما ازدادت الثّورة عنفاً أو توغلت في الإرهاب والتّقتيل، وذلك كنتيجة للضّغط الإرهابي الّذي تفرضه الثّورة على المجتمع فينحاز -لاجئاً- إلى خصم لها -أياً كان- ليجد فيه مخرجاً لما هو فيه من العذاب، وكثيراً ما يحدثنا التّاريخ عن هذه التّجربة الاجتماعية الّتي تتميز بانتفاض المجتمع على كلّ من يسوسه بالقوّة والقتل، ولا فرق على المجتمع -بذلك- أن يكون حاكمه محقاً أو غير محق في تبنيه تلك السّياسة المعينة، وكم غيرت هذه التّجربة من مجرى التّاريخ وكم كانت السّبب في إطاحة أمم وإشادة أمم أخرى؟!

قاذاً كان وقوع هذه الكارثة -على المختار وحكمه- نتيجة طبيعية وأمراً لابدّ منه فلو لم يكن من ابن الزّبير لكان وشيك الوقوع من الكوفة نفسها، وربما يفسر لنا هذا سياسة المختار الّتي سار عليها أثناء الحكم والّتي كانت تستهدف توطيد ملكه على عماد القدسية الدّينية في إظهاره بمظهر الرّجل المثالي وإدعائه النّبوة -إن صحت- واستعماله بعض الفذلكات السّياسية -كما سنرى- من حديث الكرسي وغيره الّذي يرمي إلى تركيز دعوته لأنّه بهذا ونحوه يستطيع أن يبعد أجل انهياره وسقوطه، ومهما يكن الأمر فقد تهيأ مصعب لإعلان الحرب عليه.

ولندعه الآن لنلتفت قليلاً إلى المختار ونراه ماذا يصنع؟!

يسمع المختار بتأهب مصعب بن الزّبير للزحف عليه فيبدأ دور بطولته بخطبة موجزة يقول فيها:

«... أمّا بعد يا أهل الكوفة فإنّ أهل مصركم قد بغوا عليكم كما قتلوا ابن بنت نبيكم وقد لجأوا إلى أمثالهم من الفاسقين الملحدين فاستعانوا بهم عليكم، وذلك حينما علموا بأنّ ابن الأشتر قد خذلني وقصر عن نصرتي وقد بلغني أنّهم خرجوا من البصرة يريدون قتلي ليضمحل الحقّ وينتعش الباطل ويقتلوا أولياء الله، ألا فانهدوا مع الأحمر بن شميط..».

وهي على إيجازها تصور لنا مبلغ استيائه من أولئك الّذين لجأوا إلى أمثالهم -ويعني بهم آل الزّبير- من الفاسقين الملحدين كما تصور مدى ضعف أمله في الانتصار بهذه المعركة، ولم يفرغ من خطابه حتّى قدم النّاس متثاقلين وهم يقولون «سمعنا واطعنا» واجتمع لديه قرابة أربعة آلاف وهو عدد ضئيل غير متكافئ مع جيش مصعب الّذي كان يبلغ سبعة آلاف رجل إذ ذاك.

وقد أ مر عليهم قائده الجريء الأحمر بن شميط فسار بهم هذا إلى حمام أعين فالمنار وقد عسكر جيشه بهذا الموضع.

تهم وأقاويل

المختار والإمام الحسن(عليه السلام):

روى لنا الطبري عن عثمان[1] بن عبد الرّحمن أو عبد الرّحمن المجازي «أبو عبد الرّحمن» عن إسماعيل بن راشد، قال بما مؤداه:

«إنّ الحسن(عليه السلام) نزل المدائن في المقصورة البيضاء بعدما طعن بمغول في فخذه وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملاً على المدائن إذ ذاك اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام

(1) رجال/محمد صلى الله عليه وآله

شاب هل لك في الغنى والشّرف؟ قال وما ذاك! قال توثق الحسن وتسأمن به إلى معاوية، فقال له سعد عليك لعنة الله: أثب على ابن بنت رسول الله فأوثقه بئس الرّجل أنت».

هذا هو فحوى الحديث ونحن لو تأملنا فيه جيداً وأحطنا بظروفه وملابساته يظهر لنا عدم المصادقة عليه في وجه من الوجود.

أولاً: ضعف السّند لأنّ هذا الحديث يرويه -كما رأيت- «إسماعيل بن راشد» و«عبد الرّحمن المجازي» وهما عند علماء الرّجال من المجاهيل المتروكين الّذين لا يعتمد ولا يوثق بحديثهما في شيء من مدح أو ذم[1] وعليه فإنّ هذه الرّواية المرفوعة بالسّند إلى هذين الرّجلين متروكة من أساسها ولا يصح الأخذ بها من هذه الجهة، أو هي على الأقل توجب التّشكيك والتّرديد.

ثانياً: إننا لمسنا من لسان الرّواية أنّه «غلام شاب» وتاريخه إذ ذاك يأبى عليه من أن يكون من الغلمان الشّبان لأنّ هذه الحادثة كانت عام 41هـ وكان له من العمر إحدى وأربعون سنة لأنّ ولادته كانت في عام الهجرة.

ثالثاً: ولو سلمنا صحة النّقل من جهة وإنّ «هذه الرّواية» تنسجم وعمر المختار من جهة أخرى فلماذا لا نرجح لمن يذهب[2] بأنّ «المختار» كان في دور الاختبار والامتحان لعمه «سعد بن مسعود» ولاسيّما إذا رجعنا إلى ذلك الظّرف الدّقيق من هذه الحادثة ورأينا كيف كان معاوية -عدو الإمام الحسن ومنافسه في الخلافة -يبذل المال بسخاء كسباً للمعسكر الهاشمي، وكيف كانت تباع الضّمائر ثمّ تشترى بأبخس الأثمان، ونظرة واحدة لذلك الظّرف تكفينا للأخذ بهذا القول لم لا نقول «والحالة هذه» والجو مضطرب قلق يتأرجح على أطماع معاوية وميوله وغاياته، إنّه خشي من عمه أن ينجرف بذلك التّيار كما انجرف غيره من القادة والزّعماء فأراد أن يجرب ثباته على مبدئه القويم وعقيدته الرّاسخة وهو ولاؤه لآل محمّد(صلى الله عليه وآله) فراح يفكر المختار ويمعن في التّفكير «والحسن يومئذ في المقصورة» حتّى التقى في خلال ذلك «شريك الأعور» وكان هذا من أعلام الشّيعة من جلة بطانة الإمام فوصف له النّاس وانحرافهم عن طريق الهداية، ثمّ عاد ثانياً يسأله وجه الحيلة إن صدرت من عمّه في تلك الحال بادرة ما يستشف منها غائلة السّوء أو الخيانة بالإمام فما يكون موقفه هو في مثل هذه الحال؟ فقال له «شريك» بما فحواه.

أن تذهب إلى عمك فتسره وتعرض عليه فكرة الاغتيال والخيانة والغدر فإن كان في نفسه منها شيء -والمرء يظهر على وجهه وفلتات لسانه ما يبطنه في نفسه- اتخذنا الحيطة والتّدابير وأخرجنا الإمام إلى جهة من الجهات، وإن كانت الثّانية تطمئن إلى سلامة عمك مما تسرب إليك من هذا الشّك.

ويروح المختار يعرض على عمّه تلك الفكرة أيحبب إليه نتائجها الحسنة من الحظوة «بالغنى والشّرف» ولكنّه رأى منه ما لم يكن يقدر أن يراه من الولاء والعقيدة والثّبات.

المختار والكيسانية:

اتهم المختار من قبل بعض المؤرخين بأنّ فكرة «الكيسانية» تعزى إليه وأنّها من مبتدعاته، وقيل عنه أيضاً أنّه لم يبتدعها وإنّما اعتنق مذهبها وقبل أن نبحث هاتين النّقطتين على ضوء ما عندنا من أدلة لنرى نصيبها من الصّحة، يجب أن نعرف شيئاً موجزاً عن هذا المذهب.

الكيسانية: هي عقيدة تنتهي إلى القول بإمامة محمّد بن الحنفية ويختلف معتنقوها بعد ذلك فقائل أنّه ورث الإمامة عن علي مباشرة، وقائل أنّها انتهت إليه من طريق أخويه الحسن والحسين، فمن ذهب إلى القول الأوّل كان يرى أنّ صلح الحسن لمعاوية وخروج الحسين على يزيد كان برخصة من محمّد ولو لم يرخصهما لهلكا وضلا.

ونجم من اختلاف هذه الأقوال وتشعبها -أن حمل بعضهم على القول بالتّناسخ والحلول والقول بالرّجعة كما حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الأركان الشّرعية من الصّلاة والصّوم والحج، وقالوا عن محمّد أنّه لا يموت ولا يجوز عليه الموت وأنّه غائب في جبل «رضوى» وأنّه... وأنّه...

هذا هو ملخص ما جاء عن مذهب «الكيسانية» نقلناه بهذه الأسطر.

ونحن لو رجعنا إلى تهمة بعض المؤرخين في انتماء هذه الفكرة إليه، لا نراها تستند في ارتجالياتها إلى دليل مقنع، فهذا «الطبري» في تاريخه والبغدادي في «الفرق بين الفرق» والشهرستاني في «الملل والنّحل» كلّ أولئك يعزون هذه النّسبة إلى «كيسان مولى علي بن أبي طالب» اللّهم ألا أن نأخذ بما ورد في «مروج الذّهب» وما ورد في «العقد الفريد» من نسبة هذه الفكرة إليه -على أنّ المسعودي لا يعتمد على قوله لتردده في ذلك إذ يقول «أو هو غير المختار».

وهناك أقوال كثيرة ليس هنا محل ذكرها «تفرق بين كيسان والمختار فيقول ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنّحل» أنّ هناك شخصين مختلفين هما كيسان أبو عمرة والمختار وهناك أيضاً جمهرة من المؤرخين تنسب هذه الطّائفة إلى كيسان مولى بجيلة[3].

(1) تنزيه المختار: للمقرم.

(2) ذهب إلى هذا القول العلامة ميرزا محمّد علي الاوردبادي في رسالة المختار عن مجالس المؤمنين عن كتاب نقض الفضائح للشّيخ عبد الرّزاق الرازي.

(3) على هامش تاريخ الإسلام السّياسي ص.

وهناك كتب أخرى تنفي هذه النّسبة عنه أو تتوقف فلم تذكر انتماءها إلى أحد.

1- كتاب الغيبة لأبي جعفر الطّوسي.

2- كتاب الأنوار النّعمانية للسّيد الجزائري.

3- كتاب تبصرة العوام.

4- «ابن داود» في رجاله.

وهذا التّضارب والاختلاف لا يدعنا نطمئن إلى أنّه هو المبتدع لهذه الفكرة، وليس لدينا من الشّواهد ما يكفي للجزم بهذه النّسبة إن لم يكن هناك ما يوجب الجزم بعدمها، ولكن بقي علينا -بعد هذا- أن نعرف مدى تأثره بهذه الفكرة وهل تبناها كعقيدة؟! أم هي مجرد دعوة سياسية ليس الغرض منها إلا الطّلب بالثّأر.

أكثر الظّن أنّه لم يتأثر بها كعقيدة -وما كان لمثله وهو من هو بمكانته العقلية والعلمية- أن يتأثر بإمامة محمّد مع ما اشتهر عن محمّد هذا بالقول بإمامة علي بن الحسين، وربما جاءته الشّبهة من تلقبه بالكيساني وقد سبق أن قلنا أنّ الملقب له هو الإمام علي(عليه السلام) لقوله «يا كيس يا كيس» وقد عرف لذلك منذ صباه وقبل أن تنشأ هذه العقيدة بالكيساني، بالإضافة إلى أنّ علماء الرّجال في كتبهم الّتي هي محل وموضع ثقة النّاس ينفون عنه هذه العقيدة ويقربون اعتقاده بإمامة السّجاد وهم:

1- المحقق الأردبيلي في كتابه «حديقة الشّيعة».

2- ابن داود في «رجاله».

3- العلامة الحلي في «الخلاصة» يعده في القسم الأوّل فيمن يعتمد عليهم.

4- أبو علي في «رجاله».

5- ابن نما في كتابه «ذوب النّظار».

6- الكشي في «رجاله».

هذا إلى أننا قد نستنتج من روايات الأئمّة في مدحه -كما سنرى-أنّه غير كيساني لأنّهم لا يمدحون رجلاً منحرفاً في عقيدته أو ضالاً في مذهبه أمّا نحن فالّذي نستظهره من جميع هذه الاعتبارات وغيرها الموجبة لنشوء هذه العقيدة ونسبة تبنيها إليه هو:

إنّ محمّد بن الحنفية كان شيخ الهاشميين والزّعيم المرموق منهم سناً وشاناً وهو في نظر عامة النّاس خليفة أخيه ووراثه علماً لاسيّما والإمام «علي بن الحسين» كان صغير السّن ولم تكن تعرف النّاس يومذاك نواميس الإمامة وأنّها ليست في الكبر فلو اشتبه على جماعة من النّاس بعد الحسين(عليه السلام) فلا غرابة في ذلك ولو نسبت إليه الكيسانية كما يرى أكثر النّاس ذلك في محمّد فلا نستطيع أن ننسبها إليه ولا نقول بعدمها بادئ بدء، نعم ليس من الصّواب بعد استقرار الحال ومعرفة النّاس شأن الإمام زين العابدين ومكانته من الإمامة أن نبقى على الاعتقاد فيه بالكيسانية.

يضاف إلى هذا أنّ دعوته لمحمّد -إن صحت- في بداية الثّورة كانت مجرد دعوة سياسية ليس الغرض منها الاعتقاد بإمامة محمّد، وفرق كبير بين الدّعوة الدّينية -كما هوواضح- والدّعوة السّياسية الّتي تهدف إلى جمع أكبر عدد ممكن للطلب بالثّار، وهذا هو السّبب الّذي وقع فيه الخلط من أكثر المؤرخين فاتهموه بالكيسانية.

وهذا هو أقصى ما توصلت إليه في جلاء هذه النّقطة الغامضة من عقيدة هذه الشّخصية الكريمة.

حديث الكرسي:

ومؤدى هذا الحديث فيما روي عن «الطّفيل بن جعدة» من أنّه جاء إلى المختار -وقد دفعه إلى ذلك دافع الإملاق والطّمع- يخبره بأنّ لديه كرسياً كان يجلس عليه أبوه «جعدة» ويروى أنّ فيه أثراً من علي(عليه السلام) فقال المختار: سبحان الله ولماذا أخرته إلى هذا الوقت؟ ابعث به إلينا فبعثه إليه، وقد حصل الطّفيل -بعد ذلك- لقاء هذا العمل اثني عشر ألفاً.

فراح المختار من بعد يخطب في النّاس ويخبرهم أنّه كان في بني إسرائيل التّابوت وإنّ هذا فينا مثل التّابوت فيه السّكينة والبقية والملائكة فاندفعوا وراءه يكبرون -وقد غشي بالدّيباج- ووضع في «براح الصّف» -كما يقول الشّهرستاني- ويقال لهم قاتلوا ولكم النّصرة والظّفر.

هذا هو حديث الكرسي ونحن لو تأملنا بهذا الحديث واستطعنا أن نصحح نسبته من وجهة تاريخية نرى أنّه لم يكن سوى حيلة سياسية لجأ إليها لتقوية روح النّضال في جيشه لما يعرف من تعلق الجيش بالإمام وتفانيه في حبه، وأي شيء أقوى تأثيراً من أثر للإمام يشعرون بأنّه حتماً ستكون الغلبة والظّفر لهم على يديه، كما وأنّ فيه في الوقت نفسه أضعاف جانب العدو وانهيار قوتهم المعنوية أمام قوته الرّوحية.

وصفوة القول فإنّ في هذا الحديث -إن صح- أسلوباً رائعاً وفناً ممتازاً من أفانين الحروب الّذي قوى فيه عسكره وخذل فيه جبهة عدوه، على أنا لا نمنع إكباره له واقعاً وقد رأينا أنّ من عادة المسلمين في تلكم العصور إكبار وإعظام كلما يتعلق بالأولياء والصّالحين ومَن تتبع آثارهم وجد الكثير من هذا النّوع.

خاتمة المطاف

ولعلنا إلى هنا، وقد رافقنا المختار من بداية حياته حتّى أوفى بنا البحث إلى -خاتمة المطاف- ورأينا كذلك ما توجه إليه من تهم وأقاويل كانت -على الأكثر- نابعة عن ضغن وعداء لأنّها لا تتفق وسيرته تلك السّيرة الّتي درسناها مستقصين أسسها ومباعث ظهورها.

والآن -وبعد هذا- لنطوف بالقارئ في أجواء أخرى ربما تلقي علينا بعض الضّوء على ما أحيط به صاحبنا من ملابسات وما نسب إليه من طعون وذلك عندما نقرأ ما أثر في مدحه والثّناء عليه عن أئمّة المسلمين وأعاظم رجالات الإسلام وقد طفحت فيها الموسوعات الكثيرة من كتب الرّجال الّتي هي محل وموضع ثقة النّاس.

أقول: إذا رسمنا بعض تلكم الأحاديث الّتي تشيد بذكراه لا يبقى في أنفسنا شك أنّه كان في نجوة مما نسب إليه التّاريخ.

ولنأخذ طرفاً من هذه الأحاديث ونبدأها بقول الإمام أبي جعفر محمّد الباقر(عليه السلام) فاسمعه فهو يقول:

لا تسبوا المختار فإنّه قتل قتلتنا وطلب بثأرنا وزوج أراملنا وقسم فينا المال على العسرة[1].

وحديث الإمام هذا ظاهر في حرمة سب المختار وقذفه بما هو بريء منه، وذلك لدلالة النّهي على الحرمة كما يقول الأصوليون، ومعنى هذا أنّ الإمام راض في قرارة نفسه عن كثير مما قام به المختار وبخاصة فيما يتعلق بنهضته وما يعود لانتقامه من قتلة الحسين بالإضافة إلى ما يشعر به الحديث من ارتياح الإمام للخدمات الّتي أسداها المختار لذرية الرّسول من تزويجه لفقرائهم وإرساله الأموال الخطيرة للمعوزين وذوي الفاقة منهم.

وبعد هذا الحديث يتجلى لنا بوضوح السّبب في ترحم الإمام أبي جعفر(عليه السلام) عليه، وذلك عندما دخل عليه ولد صاحبنا «أبي محمّد الحكم» فتناول يده ليقبلها -كما يعرب لنا الحديث- وكان إذ ذاك في «يوم النّحر» فمنعه الإمام.. ثمّ قال من أنت؟ قال: «أنا أبو محمّد الحكم بن المختار بن أبي عبيد» فكاد الإمام أن يقعده في حجره.. ثمّ قال أصلحك الله: إنّ النّاس قد أكثروا في أبي وقالوا والقول والله قولك: قال وأي شيء يقولون؟ قال يقولون إنّه كذاب ولا تأمرني بشيء إلا قبلته، فقال الإمام سبحان الله أخبرني أبي إنّ مهر أمّي كان مما بعث به المختار.. أو لم يبن دورنا؟ وقتل قتلتنا وطلب بدمائنا رحم الله أباك.. رحم الله أباك ما ترك لنا حقاً عند أحد إلا طلبه قتل قتلتنا وطلب بدمائنا[2]، وأنت حين ترى معالم هذا الحديث يتضح لك مدى تكريم الإمام وحفاوته بولده الأمر الّذي يدلنا على ما يكنه أهل البيت من عاطفة قوية نحو المختار، وباختصار فإنّ هذه الصّورة الّتي رسمها لنا هذا الحديث تدلنا بجميع خطوطها وألوانها على أنّ المختار كان موضع عطف الإمام، وهذا يكفي للدلالة على ما يستحقه من تقدير.

أمّا ما روي من دعاء الإمام -علي بن الحسين(عليه السلام)- له فهو من أصدق الصّور على رضاه بفعله وشكره على عمله وذلك حينما أرسل المختار رأسي عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد: قال المؤرخون.

فخرّ الإمام ساجداً: وقال الحمد لله الّذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً[3].

ولكي نكون أكثر التماساً لما نحن بصدده نستمع إلى بعض أقوال العلماء الأعلام وهذا:

1- ميرزا حبيب الله الخوئي في شرح نهج البلاغة[4]، قال ما لفظه -بعد أن أفاض في الذّب والدّفاع عنه- يكفي في فضله ما رواه «الكشي» من أنّ الإمام عرف منه صدق النّية ويشير بذلك إلى الحديث السّابق من ترحم الإمام عليه ومطابقة ضميره لما كان يظهره ويتهالك فيه من الذّب عن كيان البيت العلوي وتركاضه في أخذ الثّأر واستئصال شأفة الملحدين وصلة أهل البيت بالأموال وخدمتهم رجالاً ونساءً ورواية حديثهم وإلا كان جوابه مبتوراً عما قبله من السّؤال، ولم يكن(عليه السلام) يداهن أو يصانع أو يغري بالجهل بمدح كذاب أو مبتدع في دين أو جانح إلى دعاية مضلة من إمامة من ليس له الإمامة أو دعوى نبوة باطلة لمحض أنّه وصل أباه بمال أو قتل له عدواً أو لأنّ ابنه بحضرته فيكون قد اتخذ المضلين عضداً، وهذا أيضاً.

2- ابن داود في رجاله فنّد كل ما روي في الطّعن عليه واعتمد على الأحاديث المادحة.. أمّا

3- العلامة الحلي فلم يعن بما جاء في الحط من كرامته أو الطّعن فيه ولذلك ذكره في القسم الأوّل من «الخلاصة» المعقود لمن يوثق بصدق روايتهم في الحديث كما تطرق إلى ترحم الإمام عليه من جهة ونهي النّاس عن سبه من جهة أخرى.

يضاف إلى هؤلاء من العلماء الأعلام والمحققين:

4- المحقق الأردبيلي في «محقق الشّيعة».

5- القاضي نور الله التّستري في «مجالس المؤمنين».

إلى كثير من هؤلاء الأعلام اجمعوا على شكره في عمله وما قام به من تلك النّهضة الشّريفة الّتي كان شعارها الطّلب بدم الحسين.

أمّا بعد.. أيّها القارئ العزيز

فقد اجتمعت بك على صعيد هذه الدّراسة التّاريخية -على غير ميعاد- وتعرفت عليك بواسطة هذا الكتاب الّذي أرجو أن أكون قد حزت على رضاك فيه، فإذا أعجبك فهذا جل ما أتمناه،

(1) رجال الكشي ص.

(2) رجال الكشي ص.

(3) رجال الكشي ص.

(4) /.

لأنني سوف أثق بأنّك قد أصبحت لي صديقاً حميماً ربما التقي معه في فرصة أخرى -إن شاء الله- وإذا بدت لك ملاحظات حول الكتاب أرجو أن توافيني بها، وإذا أردت أن تتأكد من دراسة هذا الموضوع فعليك أن ترجع إلى المصادر الّتي أخذنا منها مادة كتابنا هذا -وإن رجعنا إلى غيرها في هذه الدّراسة- فستراها مثبتة في الصّفحة التّالية:

ولا بد لي في ختام هذا البحث أن أشكر فضيلة العلامة الشّيخ محمّد علي الاوردبادي لما وفر لي من مصادر رجعت إليها في بحثي هذا وللأستاذ الفاضل الشّيخ عبد الهادي الأسدي بما بذله من مساعدة في تصحيح الكتاب وللقارئ الّذي رافقنا إلى هذا المكان، والسّلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

النّجف في 1955/5/8

أحمد الدّجيلي

* * *

المصادر

1- أنساب الأشراف: للبلاذري
2- الاستيعاب: لابن عبد البر
3- أسد الغابة: لابن الأثير
4- الإصابة: لابن حجر
5- الكامل: لابن الأثير
6- تهذيب التّهذيب: لابن حجر
7- تاريخ الطّبري
8- تاريخ الكوفة: للبراقي
9- دائرة المعارف: فريد وجدي
10- مقتل الحسين: للخوارزمي
11- البداية والنّهاية: لابن كثير
12- الأخبار الطّوال: للدينوري
13- تاريخ الإسلام السّياسي: للدكتور حسن إبراهيم حسن
14- مختصر تاريخ العرب: للسيد أمير علي
15- جمهرة رسائل العرب: أحمد زكي صفوت
16- معجم البلدان: لياقوت الحموي
17- مروج الذّهب: للمسعودي
18- فرق الشّيعة: للنوبختي
19- الفرق بين الفرق: للبغدادي
20- ذوب النّظار: لابن نما
21- الملل والنّحل: للشهرستاني
22- الملل والأهواء: لابن حزم
23- رجال الكشي
24- الخلاصة: للعلامة الحلي
25- رجال المامقاني
26- تنزيه المختار: للمقرم

* * *